





الشيخ والبحر

للكاتب الأميركي

أرنست همنغواي

نقلها إلى العربية: منير البعلبكي



للكاتب الأميركي العظيم

أرنست همنغواي

نقله الى العربية

منير البعلبكي



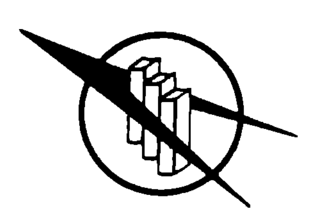
دار العلم للملايين


الشيخ والبحر

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com



١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤

الشيخ والبحر

THE OLD MAN AND THE SEA

by

ERNEST HEMINGWAY

كان رجلاً عجوزاً يصيد السمك وحده في قارب عريض القعر في « تيار الخليج » * ، وكان قد سلخ اربعة وثمانين يوماً من غير أن يفوز بسمكة واحدة . وفي الأيام الاربعين الأولى كان يصحبه غلام صغير . حتى إذا قضى اربعين يوماً من غير ان يوفّق إلى صيدٍ ما ، قال أبوا الغلام لابنهما ان الشيخ منحوس نحساً لا ريبَ فيه ولا برء منه ، وسألاه ان يعمل في قارب آخر ما لبث أن فاز بثلاث سمكات رائعات في الاسبوع الاول . ولقد أحزن الغلامَ أن يرى الشيخ يرجع كل يوم خاليَ القارب ، فكان ما يفتأ يمضي للقائه ويساعده في حمل صنانيره الملتفّة أو مِحْجنه وحربونه ** والشراع المطويّ حول السارية . وكان الشراع مرقعاً بأكياس دقيق عتيقة ، فهو يبدو وقد طُويَ على هذه الشاكلة أشبه ما يكون براية الهزيمة السرمدية .

وكان الشيخ معروقاً شاحباً انتشرت في مؤخر عنقه تجاعيد عميقة ، وعلّت خديه القروح السمراء الناشئة عن سرطان الجلد

---

* Gulf Stream وهو تيار اوقيانوسي دافىء ينبثق من خليج مكسيكو ويجري شمالا في محاذاة الساحل الاميركي ومن ثم يتخذ اتجاهاً شمالياً شرقياً نحو الجزر البريطانية . (المعرب)

** الحربون : رمح مريش لصيد الحيتان . (المعرب)

غير المؤذي الذي هو ثمرة انعكاس الشمس على صفحة المياه في المناطق الاستوائية . وكانت تلك القروح تغطي جانبي وجهه ، على حين كانت في يديه ندوب عميقة الغور خلّفتها الحبال التي علقت في أطرافها ضروب من الاسماك الثقيلة . ولكن أياً من هذه الندوب لم يكن غضاً . كانت قديمةً قِدَم التأكل في صحراء خلو من السمك .

كان كل شيء فيه عجوزاً خلا عينيه ، وكان لونهما مثل لون البحر . وكانتا مبتهجتين باسلتين .

وقال له الغلام فيما هما يصعدان الضفة بعد أن دفعا القارب إلى اليابسة .

— « سانتياغو ! في استطاعتي أن أذهب معك من جديد . لقد فزنا بشيء من المال . »

كان الشيخ قد علّم الصبي صيد السمك ، وكان الصبي يحبه .

وقال الشيخ :

— « أنت تعمل الآن على ظهر مركب محظوظ . إبقَ حيث أنت . »

— « ولكن اذكرْ كيف سلختَ سبعة وثمانين يوماً من غير أن توفّق إلى سمكة واحدة ثم تدفقت علينا الاسماك الكبيرة ، فكنا نصطاد منها كلّ يوم عدداً غير يسير ، طوال أسابيع ثلاثة . »

فقال الشيخ :

— « أذكر ذلك . أنا أدري جيداً ان فراقك لي لم يكن ناشئاً عن شكوكك . »

– « بابا هو الذي أكرهني على فراقك . أنا ما أزال غلاماً صغيراً ، ويتعين عليّ أن أطيعه . »

فقال الرجل العجوز :

– « أدري . هذا شيء طبيعي جداً . »

– « ليس لديه ايمان . »

فقال الشيخ :

– « لا . أما نحن فايماننا قوي . أليس كذلك ؟ »

فقال الغلام :

– « نعم . هل أستطيع أن أقدّم اليك شيئاً من الجعة في « السَّطيحة » ، ثم نحمل هذه الادوات كلها إلى البيت ؟ »

فأجابه الشيخ :

– « ولم لا ؟ سوف أشربها بين الصيادين . »

وجلسا على « السَّطيحة » ، وأنشأ عدد من الصيادين يسخر من الرجل العجوز ، ولكن ذلك لم يستثر غضبه قط . أما الصيادون الشيوخ فنظروا اليه وقد عصر الحزن قلوبهم . ولكنهم لم يُظهروا ذلك ، وراحوا يتحدثون في كياسة عن التيار ، والأعماق التي قذفوا بخيوطهم اليها ، والجوّ الجميل المتواصل ، وعمّا شاهدوه . وكان الصيادون الذين فازوا برزقهم ذلك النهار قد دخلوا ، وشقّوا بطون اسماكهم وحملوها – ممدّدةً على لوحين خشبيين كان رجلان يترنحان عند طرف كل منهما – إلى المسمكة حيث انتظرت سيارة الثلج الكبيرة لتقلّها إلى السوق في هافانا . وكان الذين اصطادوا اقراشاً • قد حملوها إلى مصنع

• جمع قرش ، وهو سمك ضخم شبيه بكلب البحر . (المعرب)

الاقراش في الضفة الاخرى من الخليج ، حيث توضع على الآلات الرافعة وتنزال أكبادها ، وتُقطع زعانفها ، وتُنزع جلودها ، ويقطّع لحمها قِدداً يُصار بعدُ إلى تمليحها .

وحين تهبّ الريح من ناحية المشرق كانت روائح مصنع الأقراش تملأ جنبات المرفأ . أما اليوم فلم تبلغ المرفأ غير رائحة واهنة لأن الريح انقلبت إلى الشمال ثم همدت فجأة . وكان الجو جميلاً مشمساً على « السطيحة » .

وقال الغلام :

— « سانتياغو ! »

فأجابه الشيخ :

« نعم ! » . كان حاملاً كأسه يفكر في الايام الخالية .

— « هل تريد أن أذهب وآتيك بشيء من السردين تستعين به على الصيد غداً ؟ »

— « لا . إذهبْ والعب البيسبول . أنا لا أزال قادراً على التجذيف . ولسوف يلقي روجيليو الشبكة . »

— « كم أحبّ أن أذهب . وإذا كنت لا أستطيع أن اصطاد معك فليس يمنعني ذلك من أن أخدمك بطريقة ما . »

فقال الشيخ :

— « لقد قدمتَ إليّ كأساً من الجعة . ويبدو لي أنك صرتَ رجلاً قبل الاوان . »

— « كم كان عمري عندما اصطحبتني ، أول مرة ، في قارب ؟ »

— « خمس سنوات . ولقد كدتَ تقتل عندما حملتُ السمكة

وكانت ما تزال غضة العود ، فكادت تمزّق القارب إرباً إرباً .
هل تذكر ؟ »

— « أستطيع أن أذكر ذنبها يضرب ويخبط ، ومقعد التجذيف ينكسر ، والدويّ الذي أحدثه ذلك التضريب .
أستطيع أن أذكر كيف قذفتَ بي إلى مقدّم المركب حيث كانت الخيوط الندية الملتفّة . لقد شعرت بالمركب كله يرتجف ، وسمعت صدى ضربك للسمكة الضخمة وكأنك تجتثّ بالفأس شجرة من الاشجار ، وشممت رائحة الدم العذبة تفوح من حولك . »

— « هل تذكر ذلك حقاً أم اني أنا الذي حدثتك به ؟ »

— « أنا أذكر كلّ ما وقع لنا منذ أوّل يوم انطلقنا فيه معاً . »

ونظر الشيخ العجوز اليه بعينين ناضحتين بالحب والثقة ، عينين لوّحتها أشعة الشمس ، وقال :

— « لو كنتَ ولدي لانطلقتُ بك وغامرتُ ولكنك ابن أبيك وأمك ، وأنت تعمل على قارب محظوظ . »

— « هل آتيك بالسردين ؟ في استطاعتي أن أجيء بأربعة أطعام * . أنا أعرف من أين . »

— « لا تزال أطعام اليوم عندي . لقد وضعتها في الصندوق وغمرتها بالملح . »

— « دعني أذهب وآتيك بأربعة جديدة . »

فقال الشيخ :

— « جيء بواحد فقط . »

* جمع طعم (بضم الطاء) وهو ما يلقى الى السمك ليصطاد .

إن أمله وثقته لم يعترهما الوهن قط . ولكن الانتعاش دبّ فيهما كما ينتعشان حين يهب النسيم العليل .

فأصرّ الصبيّ :

– « بل باثنين . »

فما كان من الشيخ إلا أن أقرّه قائلاً :

– « لا بأس ، إيتني باثنين . أنت لم تسرقهما ؟ »

– « أنا لا أعفّ عن ذلك . أما هذه الاطعام فقد اشتريتها . »

فقال الشيخ :

– « شكراً . »

كان أبسط من أن يتساءل متى تعوّد الاذعان . ولكنه عرف أنه تعوّده ، وعرف انه غير معيب ، وليس يضير الكبرياء الحقيقية على الاطلاق .

وقال :

– « سوف يكون الجوّ رائقاً ، غداً ، بعد هذا التيار . »

وسأله الغلام :

– « إلى أين تريد أن تذهب ؟ »

– « إلى أبعد ما أستطيع ، لكي أعود حين تتحول الريح . يجب أن أنطلق قبل أن يبزغ الفجر . »

فقال الغلام :

– « سوف أحاول أن أحمل معلّمي على الانطلاق إلى عرض البحر . وهكذا يكون في استطاعتي أن أسارع لمساعدتك إذا اصطدتَ شيئاً كبيراً حقاً . »

– « إنه لا يحب الانطلاق إلى مدى بعيد . »

فقال الغلام :

– « هذا صحيح . ولكني أحاول أن أرى شيئاً لا يستطيع هو أن يراه : ولنقلْ انه طائر يختلس شيئاً ، وعندئذ أغريه بالجري وراء الدلفين . »

– « هل يشكو ضعفاً في البصر ؟ »

– « إنه أعمى تقريباً . »

فقال الشيخ :

– « هذا شيء غريب . ذلك لأنه لم يصطد السلاحف البحرية في يوم من الايام . وهذا هو الذي يقتل العينين . »

– « ولكنك سلختَ عدة سنوات تصطاد السلاحف في « ساحل البعوض » ، ومع ذلك فعيناك جيدتان . »

– « أنا عجوز غريب . »

– « ولكن هل تظن انك لا تزال من القوة بحيث تستطيع أن تصطاد سمكة كبيرة ، كبيرة حقاً ؟ »

– « أظن ذلك . وإلى هذا فهناك حيلٌ كثيرة . »

فقال الغلام :

– « فلنحمل هذه الادوات كلها إلى المنزل . وهكذا أستطيع أن آخذ الشبكة الخاصة بصيد السردين واصطاد منه شيئاً كثيراً . »

وجمعا العُدّة من القارب . وحمل الشيخ السارية على كتفه ، وحمل الغلام الصندوق الخشبي المنطوي على الخيوط السمراء الملتفّة المضفورة ضفراً محكماً ، والمحجن ، والحربون . وكان صندوق الأطعام في مؤخر القارب إلى جانب الهراوة التي تُصطنع لاخضاع السمكات الضخام بعد اصطيادها وجذبها .

إن أحداً لن يسلب الشيخ عُدّته . ومع ذلك فمن الخير أن يُحمل الشراع والخيوط الثقيلة إلى البيت ما دام الندى يؤذيها . وعلى الرغم من أن الشيخ كان على مثل اليقين من أن أحداً من أهل البلد لن يسرقه ، فقد قال في ذات نفسه إن في ترك مِحْجن وحربون في قعر قارب ما إغراء بالسرقة لا داعي له .

وتقدما معاً نحو كوخ الشيخ ، وولجا بابه المُشْرع . وأسند الرجل العجوز الساريةَ وشراعها المطويَّ إلى الجدار ، ووضع الغلام الصندوق وسائر الادوات إلى جانبها . وكان طول السارية يكاد يبلغ طول الغرفة الوحيدة التي يتألف منها الكوخ . وكان الكوخ مبنياً بتلك المادة الصلبة التي يدعونها « غوانو » Guano والتي لا تعدو ان تكون سعف النخلة الملكية المتراكم . وكان فيه سرير ، وطاولة ، وكرسي . وكان الطبخ يجري على الفحم في جانب من أرضه القذرة . وعلى الجدران السمراء ، حيث برزت ههنا وههناك أوراق الـ « غوانو » المذللة المتراكبة ذات النسيج الصلب ، كانت صورتان ملونتان : احداهما تمثل قلب يسوع الاقدس والاخرى تمثل عذراء كوبر ، وكانت هاتان الصورتان من آثار زوجته . وذات يوم كان الجدار مزداناً بصورة ملونة لزوجته نفسها ، ولكن شعور الشيخ بالوحدة كان يتعاظم كلما نظر اليها . وهكذا نزعها عن الجدار ووضعها على الرفّ الذي في وسط الغرفة تحت قيمصه النظيف .

وسأله الغلام :

— « ما عندك من الطعام ؟ »

– « قِدر من الأرزّ المُزَعْفَر • مع السمك . أتحب أن تأكل شيئاً من ذلك ؟ »

– « لا . سوف آكل في البيت . هل أضرم لك النار ؟ »

– « لا . سأضرمها في ما بعد . وقد آكل الارزّ بارداً . »

– « هل أستطيع أن آخذ شبكة صيد السردين ؟ »

– « طبعاً . »

ولم تكن عند الشيخ شبكة خاصة بصيد السردين ، وكان الغلام يذكر أنه قد باعها . ولكنهما كانا يمثّلان هذه الكوميديا الصغيرة كل يوم . ولم تكن ثمة قدر من الأرزّ المزعفر مع السمك . وكان الغلام يعرف ذلك أيضاً .

وقال الشيخ :

– « إن الخمسة والثمانين رقم سعيد . فماذا تقول لو رأيتني راجعاً بسمكة تزن أكثر من الف رطل ، في قاربي ذاك ؟ »

– « سوف آخذ الشبكة وأمضي لصيد السردين . هل لك أن تقعد عند المدخل تحت أشعة الشمس ؟ »

– « أجل . عندي جريدة البارحة ، وأحب أن أطالع الصفحة الخاصة بالبيسبول . »

ولم يدرِ الغلام ما إذا كانت جريدة البارحة جزءاً من الكوميديا أيضاً . ولكن الرجل العجوز سحبها من تحت السرير .

ثم أوضح :

• زعفر الطعام : وضع فيه الزعفران .

— « لقد أعطاني بيريغو إياها في الـ « بوديغا » .

— « سوف أعود حين أحصل على السردينات . ولسوف أبقي حصتك وحصتي في الثلج ، وغداً صباحاً نقتسمها . وعندما أرجع تحدثني بحديث البيسبول . »

— « اليانكيّون * لا يمكن أن ينهزموا . »

— « ولكني أخشى هنود كليفلند . »

— « ليكن إيمانك باليانكيين قوياً ، يا بُنيّ . فكّر في دي ماغيو العظيم . »

— « أنا أخشى أنمار ديترويت وهنود كليفلند في وقت واحد . »

— « كن حذراً ، وإلاّ خشيتَ حمر سينسيناتي ، وجوارب شيكاغو البيضاء . »

— « أدرُسْها ، وخبّرني عندما أعود . »

— « ألا ترى ان علينا أن نشتري ورقة يانصيب منتهية بخمسة وثمانين ؟ غداً هو اليوم الخامس والثمانون . »

فأجابه الصبيّ :

— « هذه فكرة . ولكن ما قولك بالسبعة والثمانين التي بلغها رقمك القياسي الكبير ؟ »

— « لن يقع ذلك مرتين . هل تظنّ أن في استطاعتنا أن نجد ورقة تنتهي بخمسة وثمانين ؟ »

— « في إمكاني أن أطلب واحدة . »

— « عُشر ورقة فقط . وهذا يساوي دولارين ونصف . ممّن

---

* Yankees لفظ يطلق على سكان الولايات الاميركية الشمالية على وجه الخصوص . (المعرب)

نستطيع أن نفترض هذا المبلغ ؟ »

– « هـذا شيء سهل . في ميسوري دائماً أن أجـد من يقرضني دولارين ونصف . »

– « وأحسب أني أنا أيضاً قادرٌ على ذلك . ولكني لا أحاول أن استدين . إن المرء يستدين اولاً ، ثم يستعطي . »

فقال الصبي :

– « إلتحِفْ جيداً ، أيها الشيخ . تذكر أننا في أيلول . »

– « شهر السمكـات الكبار . إن أيما انسان يستطيـع أن يعمل صياداً في نوار . »

فقال الصبي :

– « سوف أمضي التماساً للسردين . »

وحين رجع الفتى ، كان الشيخ نائماً في الكرسي ، وكانت الشمس قد غربت . ورفع الفتى البطانية العسكرية العتيقـة عن السرير ونشرها على ظهر الكرسي وفوق كتفي الرجل العجوز . كانتا كتفين غريبتين ، فهما ما تزالان قويتين برغم ان صاحبهما طاعن في السن . وكانت العنق لا تزال قويـة ايضاً . ومـا كانت التجاعيد لتظهر كثيراً في هذا الوضع الذي انحـنى فيه رأس الشيخ الى أمام . وكان قميصه قد رُقع مرات عديدة حتى لأصبح أشبه ما يكون بالشراع، وكانت الرقع قد اتخذت، بعد أن أنصلتها الشمس ، الف لون ولون . ومع ذلك فقد كان رأس الشيخ هرماً جداً ، ولم تكن على وجهه ، وقـد أغمض عينيه ، أثارة من حياة . وكانت الصحيفة ملقاة على ركبتيه ، وكان ثقل ذراعه يحبسها هناك برغم نسيم المساء . أما قـدماه

فكانتا حافيتين .

وتركه الغلام مسترسلاً في رقاده ، وغاب عنه من جديد . حتى اذا عاد ألفاه نائماً ما يزال .

– « انهض أيها الشيخ ! قال الغلام ذلك ووضع يده على إحدى ركبتي الرجل العجوز .

وفتح الشيخ عينيه . وبدا لحظة وكأنه يحاول أن ينتزع نفسه من أعماق حلمه . ثم افترّت شفتاه عن ابتسامة وسأله :

– « ما هذا الذي معك ؟ »

فأجابه الغلام :

– « طعام العشاء . سوف نتناول طعام العشاء . »

– « أنا لست جائعاً جداً . »

– « هيا ، تناول طعامك . أنت لا تستطيع أن تصطاد السمك اذا لم تأكل . »

– « لقد وقع لي هذا من قبل . » قال الشيخ ذلك ونهض فتناول الصحيفة وطواها . ثم انه شرع يطوي البطانية .

فقال الصبي :

– « أبق البطانية عليك . أنت لن تنطلق للصيد من غير أكل ما دمتُ أنا حياً . »

فقال الشيخ :

– « إذن فعش دهراً طويلاً واعتنِ بنفسك . ما الذي سوف تأكله ؟ »

– « لوبياء سوداء ، وأرزّ ، وموز مقليّ ، وشيء من اللحم المطبوخ . »

كان الغلام قد أتى بذلك كله من « السطيحة » في سُطَيلة ذات طبقتين . وكان قد وضع السكينتين والشوكتين والملعقتين في جيوبه ، وجعلها مجموعتين مستقلتين ولفّ كلاًّ منهما بمنديل من ورق .

— « من أعطاك هذا ؟ »

— « مارتن . صاحب السطيحة . »

— « يجب أن أشكره . »

— « لا داعي إلى ذلك . فقد شكرته أنا . »

فقال الشيخ :

— « سوف أعطيه لحم البطن من إحدى السمكات الكبار . هل قدم الينا ذلك أكثر من مرة ؟ »

— « أحسب ذلك . »

— « إذن يجب أن أعطيه شيئاً أكثر من لحم البطن . إنه كريم حقاً . »

— « لقد أرسل الينا زجاجتي بيرة أيضاً . »

— « أنا أحب البيرة في علب الصفيح أكثر . »

— « أدري . ولكن هذه معبأة في زجاجات . إنها بيرة هاتوي . ولسوف أعيد الزجاجتين . »

فقال الشيخ :

— « هذا لطف منك كثير . هل ينبغي أن نأكل ؟ »

فأجابه الفتى في رقة :

— « كنتُ أسألك أن تفعل . أنا لم أشأ أن أفتح السطيلة إلا بعد أن تبدي استعدادك لذلك . »

فقال الشيخ :

— « أنا مستعد الآن . كل ما في الأمر أني كنت أريد أن أغسل وجهي ويديّ . »

أين يغتسل ؟ كذلك فكّر الغلام . لقد كان ماء القرية العامّ على بُعد شارعين من كوخه . وكان ينبغي أن أحمل له الماء إلى هنا — كذلك فكّر الغلام — وأحمل صابونةً ومنشفة جيدة أيضاً . أنا قليل الدراية حقاً . يجب أن آتيه بقميص آخر وسترة للشتاء . ليس هذا فحسب ، بل يجب أن آتيه أيضاً بحذاء من نوع ما ، وبطانية أخرى .

وقال الشيخ :

— « إن لحمك المطبوخ هذا ممتاز . »

فسأله الغلام :

— « حدثني عن مباريات البيسبول . »

— « في المباراة الأميركية فاز اليانكيون كما قلت . »

فأخبره الغلام :

— « لقد انهزموا اليوم . »

— « هذا لا يُفيد شيئاً . لقد عاد دي ماغيو العظيم سيرته الأولى . »

— « إن في الفريقين لاعبين آخرين . »

— « طبعاً ، ولكنه هو الذي يرجح الكفة . ففي المباراة الأخرى بين بروكلين وفيلاديلفيا ، يجب أن أقف في جانب بروكلين . ولكني أعود فأفكر في « دك سيسلر » وتلك الضربات العظيمة في الملعب القديم ».

— أنا لم أرَ في حياتي لاعباً يقذف الكرة إلى أبعد مما يقذفها هو . »

— « هل تذكر تلك الأيام التي كان يفدُ فيها على « السطيحة » ؟ لقد رغبت في ان اصطحبه الى الصيد ، ولكن الحياء حال بيني وبين دعوته الى ذلك . ثم سألتك أن تدعوه فغلب عليك الحياء ايضاً . »

— « أدري . كانت غلطة كبيرة . فقد كان من الجائز أن يمضي معنا . ولو فعل ، إذن لفزنا بذكرى لن ننساها طول حياتنا . »

فقال الشيخ :

— « لشدّ ما أحب أن أصطحب دي ماغيو العظيم الى الصيد . يقولون ان اباه كان صياداً . ولعله كان فقيراً مثلنا ، فهو يستطيع أن يفهمنا . »

— « إن والد سيسلر العظيم لم يكن فقيراً قط . وكان ابوه هذا يشترك في المباريات الكبرى وهو في مثل سني . »

— « حين كنت في مثل سنك كنت واقفاً امام السارية في مركب شراعي يطوف سواحل افريقية ، وكنت قد رأيت الأسود على الشطآن ، بعد أن هبط الليل . »

— « أدري . لقد حدثتني عن ذلك . »

— « عمّ ينبغي ان نتحدث : عن افريقية أم عن البيسبول ؟ »

فقال الفتى :

— « عن البيسبول في ما أظن . حدّثني عن جون ج. ماك غراو العظيم » (ولفظ الفتى « جوتا » بدلاً من « ج » .)

— « كان من عادته أن يَفِدَ على « السطيحة » بعض

الاحيان ايضاً ، في الايام الحالية . ولكنه كان جافيـاً ، فظّ الكلام ، يجتنب الناس معاشرته حين يكون سكران . ولقد كان ذهنه مشغولاً ابداً بسباقات الخيل انشغالــه بمباريات البيسبول . وعلى أية حال فقــد كانت جيوبـه ملأى ، دائماً ، بلوائــح الخيــل . وكثيراً ما كان يذكر اسمــاء الأفراس في أحاديثـه التلفونية . »

فقال الغلام :

— « كان منظّماً عظيماً . بل ان ابي يعتقد انــه اعظم المنظّمين على الاطلاق . »

فقال الشيخ :

— « لأنـه كان يجيء الى هنا كثـيراً . ولو ان دورروتشر واصل المجيء الى هنا كل عام لعدّه أبوك اعظم المنظّمين . »

— « مــن هو المنظّم الاعظم حقــاً : لوك أم مايــك غونزاليز ؟ »

— « أحسبُ انهما فرسا رهان . »

— « أما أحسن الصيادين فأنت من غير شك . »

— « لا . أنا أعرف آخرين هم أفضل مني . »

فقال الغلام :

— « هناك كثير من الصيادين البارعين وقليل من الصيادين العظام . ولكن ليس هناك واحد مثلك . »

— « شكراً . انت تُدخل السعادة الى قلــبي . ارجو أن لا تمرّ بنــا سمكة هي من الضخامــة بحيث تُثبت أننا كنــا مخطئَين . »

— « ليس هناك مثل هذه السمكـة اذا كنت لا تزال قوياً

كما تقول . »

فقال الشيخ :

ـ « قد لا أكون قوياً بقدر ما أظن . ولكني أعرف كثيراً من الحيل ، وإن عندي عزيمة صادقة . »

ـ « ينبغي أن تأوي إلى السرير الآن لكي تنهض نشيطاً في الصباح . سوف أعيد هذه الأشياء كلها إلى السطيحة . »

ـ « طاب مساؤك إذن . سوف أوقظك في الصباح . »

فقال الغلام :

ـ « أنت ساعتي المنبهة . »

فقال الرجل العجوز :

ـ « الشيخوخة هي ساعتي المنبهة . لماذا يستيقظ الشيوخ باكراً إلى هذا الحد ؟ أيفعلون ذلك لكي يتمتعوا بنهار أطول ؟ »

فأجابه الصبي :

ـ « لست أدري . كل ما أدريه أن الفتيان الصغار ينامون في ساعة متأخرة ويجدون صعوبة في أن يستيقظوا صباحاً . »

فقال الشيخ :

ـ « أستطيع أن أتذكر ذلك . سوف أوقظك في الوقت المناسب . »

ـ « أنا لا أحب أن يوقظني هو . إن ذلك يُشعرني وكأنني دونه مقاماً . »

ـ « أدري . »

ـ « نم جيداً ، أيها الشيخ . »

وغادر الفتى المكان . كانا قد تناولا الطعام وليس على الطاولة

مصباح . ولقد خلع الشيخ بنطلونه ومضى إلى السرير تحت جنح الظلام. ولف بنطلونه ليتخذ منه وسادة واضعاً الجريدة في داخله. ولفّ نفسه في البطانية ، واستلقى على الصحف العتيقة الأخرى التي غطّت نوابض السرير .

وما هي إلا فترة قصيرة حتى استسلم للرقاد وحلم بأفريقية يوم كان صبياً وبالشطآن الذهبية الطويلة ، وبالشطآن الناصعة البياض إلى حد يؤذي العين ، وبالرؤوس العالية ، والجبال العظيمة السمراء . لقد انتهى إلى أن يحيا ، الآن ، كل ليلة ، في ذلك الساحل الافريقي . وفي أحلامه سمع هدير الأمواج ، ورأى قوارب الزنوج تنطلق من خلالها . وعطّرت رقادَه ريّا القطران وحبال القنّب القديمة التي يستروحها المرء على متون المراكب . وعند الصباح ، كانت نسائم البر تحمل اليه رائحة إفريقيا نفسها .

وكان من دأبه حين يتنشق نسائم البر أن ينهض من فراشه ويرتدي ملابسه ويمضي فيوقظ الغلام . ولكن عبير نسائم البر أقبل ، هذه الليلة ، في ساعة مبكرة جداً . « في ساعة مبكرة جداً » ، كذلك قال في غمرة حُلمه . واسترسل في الرقاد لكي يرى قمم الجزائر البيضاء تنهض من اعماق البحر . وبعد ذلك تبدّت له في الحلم موانىء « جزر الكناري » ومراسيها المختلفة .

ولم يعد يرى في ما يرى النائم شيئاً من العواصف أو النساء أو الأحداث الكبيرة . . بل لم يعد يرى لا السمكات الكبار ، ولا المشاحنات ، ولا مباريات القوى ، وحتى زوجته نفسها . لقد أمسى الآن يحلم بالأماكن فقط وبالأسود السارحة على

الشاطىء . لقد لعبت كالقطط الصغيرة في الغسق ، ولقد أحبها هو كما أحب الغلام ، ولم يرَ الغلامَ في منامه قط .

ونهض الشيخ من فراشه ، ونظر الى القمر من خلال الباب المفتوح ، ونشر بنطلونه وارتداه . ثم انه بال خارج الكوخ ، واتخذ سبيله الصاعد لكي يوقظ الغلام . كان يرتجف من برد الصباح ، ولكنه عرف ان هذه الارتجافة سوف تُدفئه ، فما هي إلا برهة حتى ينكبّ على مجاذيفه .

ولم يكن على باب البيت الذي يقطنه الغلام قفلٌ ما ، ففتحه الشيخ ، ودخل البيت بقدميه الحافيتين في تؤدة وسكينة . كان الغلام نائماً في سرير صغير قائم في الغرفة الأولى ، وكان في ميسور الشيخ أن يتبينه في وضوح على ضوء القمر المحتَضَر . وفي رفق أمسك باحدى القدمين الرخصتين ورفعها في الهواء ، حتى استفاق الغلام واستدار ، ونظر اليه . وحنى الشيخ رأسه ، فتناول الغلام بنطلونه عن الكرسي المجاور للسرير ، ثم استوى قاعداً في الفراش وارتدى البنطلون .

وغادر الشيخ البيت : ومضى الغلام في إثره . كان النعاس لا يزال في عينيه ، فوضع الشيخ ذراعه على كتفيه وقال :

– « أنا آسف لايقاظي إياك . »

فقال الغلام :

– « دع عنك ذلك . النهوض باكراً هو وحده اللائق بالرجال . »

وهبطا الطريق الى كوخ الشيخ . وعلى طول الطريق وتحت جنح انظلام ، كان رجال حفاة يتحركون ، وقد حملوا سواري قواربهم على أكتافهم .

حتى اذا انتهيا الى الكوخ حمل الغـلام الخيوط في السلة ، والحربونَ والمحجن . وحمل الشيخ سارية القارب والشراع الملتف حولها على كتفه .

وسأله الغلام :

– « هل تريد قهوة ؟ »

– « من الأفضل أن نضع العدّة في القـارب ، ثم نحتسي شيئاً منها . »

وتناولا القهوة بعلبتي صفيح من علب الحليب المكثف ، في حانة تستقبل الصيادين في الصباح الباكر .

وسأله الغلام :

– « هل نمت نوماً عميقاً ، ايها الجد ؟ »

كان يتخذ سبيله الى اليقظة ، الآن، على الرغم من انه كان من العسير عليه أن يذود النعاس عن جفنيه .

فأجابه الشيخ :

– « أجل ، نمت نوماً عميقـاً ، يا مانولين . أنا واثق من النجاح اليوم . »

فقال الغلام :

– « وكذلك أنا . والآن يجب ان آتي بنصيبك وبنصيـبي من السردين ، وان احمل اليـك أطعامك الجديدة . ان معلمي هو الذي يحمل عدّتنا ، وليس لأحد الحق في أن يمسها عـلى الاطلاق . »

فقال الشيخ :

– « لكلّ طريقته . لقد أجزت لك ان تحمـل أي شيء وانت بعد في الخامسة من العمر . »

فقال الفتى :

— « أعرف ذلك . ولسوف أرجع على التوّ . خُذ مقداراً آخر من القهوة . إن لنا حساباً جارياً هنا . »

وانطلق حافي القدمين ، فوق الصخور المرجانية ، إلى مستودع الثلج العمومي الذي حُفظت فيه الأطعام .

واحتسى الشيخ قهوته في تؤدة . فقد كانت كل ما سيدخل جوفه طوال ذلك النهار ، وكان يعرف جيداً أنه في أمسّ الحاجة اليها . فمنذ عهد طويل وتناوُل الطعام يزعجه ، فهو لا يصطحب أيما غذاء أبداً . كانت عنده زجاجة ماء في مقدم القارب ، وكان ذلك كل ما يحتاج اليه طوال النهار .

ورجع الغلام حاملاً السردين والطُعمَين وقد لفّ هذين الأخيرين بإحدى الصحف العتيقة . وهبطا المجاز المؤدي إلى القارب ، غارزَيْن أقدامهما في الرمل الحَصِب ، ورفعا القارب وقذفا به ، فانساب على وجه الماء .

— « أتمنى لك حظاً سعيداً ، أيها الجد . »

— « وأنا أتمنى لك حظاً سعيداً . » كذلك أجابه الشيخ .

وشدّ أربطة المجذافين القنّبية الى الوتدين ، وانحنى الى امام متكئاً على طرفي المجذافين المسطحين المندفعين في الماء ، وشق طريقه الى خارج المرفأ في غمرة من الظلام . وكانت قد انطلقت في عرض اليمّ قوارب أخرى مقبلة من السواحل المجاورة . ولقد سمع الشيخ أصوات مجاذيفها وهي تلطم المياه وتدفعها على الرغم من انه ما كان قادراً على ان يتبيّنها ببصره بعد أن غاب القمر وراء الروابي .

وكان بعضهم يتحدث ، أحياناً ، في قارب ما . ولكن معظم

القوارب كانت صامتة لا ينبثق منهـا غير أصوات المجاذيف . وتناثرت تلك القوارب بعد أن غدت بعيدة عن فم المرفأ ، واتجه كل منها الى جزء من المحيط كان يرجو أن يقع فيه على صيد سمين . وعرف الشيخ انه قد اوغل كثيراً . لقـد خلّف وراءه عبير الأرض ، وأنشأ يجذّف ويجـذّف . وكانت كل ضربـة مجذاف تقربـه من ريّا المحيط الصباحية الصافيـة . لقـد رأى الى أعشاب الخليـج تتوهج في الماء توهجـاً فوسفوريـاً ، بينما كان يجذّف في ذلك الجزء من الاوقيانوس الذي دعاه الصيادون « البئر الكبيرة » بسبب من عمقه المفاجىء البالغ سبعمئة قامة * حيث تحتشد الأسمـاك على اختـلاف ضروبها نتيجة للدرادير ** التي يحدثهـا التيار حين يصطدم بجدران قاع المحيط الشديـدة الانحدار . هنا كان يتمركز الروبيان والسردين ، بل وتنشأ في بعض الأحيان مستعمرات من السبيدج في أعمق الثقوب . وكانت هذه ترتفع الى قريب من السطح عند المساء فتغتذي بها جميـع الأسماك التائهة .

وفي غمرة من الظلام كان في ميسور الشيـخ أن يستشعر أن الصباح يُغذّ الخطى . وفيما هو يجذّف انتهت الى سمعه ذبذبات الأسماك الطائرة وهي تنبثق من الماء، وصفير اجنحتها القاسية وهي تحلّق في الظـلام . وكـان مولعاً جداً بالأسماك الطـائرة لأنهـا كانت صديقته الرئيسيـة في عرض الاوقيانوس . كانت العصافير تثير شفقته ، وبخاصة سنونو البحر الصغيرة المهزولة الداكنة التي ما تفتأ تطير وتبحث ولا تكاد تجد شيئاً على الاطلاق . وقال في

---

* القامة مقياس يساوي ستة اقدام او متراً و ٨٣ سنتم . (المعرب)

** الدردور : موضع في البحر يجيش ماؤه فيخاف فيه الغرق .

ذات نفسه : الطيور تحيا حياة أقسى من حياتنا نحن ، باستثناء الجوارح والطيور السُرّاق . لماذا جُعلت العصافير نحيلة رقيقة الحاشية مثل سنونو البحر هذه ، ما دام الاوقيانوس وحشياً الى هذا الحد ؟ ان الاوقيانوس لطيف وجميل جداً ، ولكن في استطاعته أن يصبح وحشياً ، وحشياً الى أبعد الحدود ، وفي مثل لمح البصر . ولا ريب في ان هذه العصافير الصغيرة التي تطير ، وتغوص ، وتقتنص – بأصواتها الهزيلة المحزونة – هي ارقّ من أن تحتمل حياة البحار .

وكان يدعو المحيط « البحرة » La mar وهو الاسم الذي يطلقه الناس باللغة الاسبانية على المحيط حين يتعشقونه . وفي بعض الأحيان كان اولئك الذين يتعشقون المحيط يذمونه أو يسبّونه ولكنهم كان يفعلون ذلك دائماً وكأنهم يتحدثون عن امرأة . وكان بعض الصيادين الأحدث سناً – اولئك الذين يصطنعون عوّامات تطفو بها صنانيرهم والذين يملكون زوارق بخارية اشتروها في الفترة التي بيعت خلالها اكباد الأقراش بأثمان غالية جداً – يدعون المحيط « البحر » El mar وهو اسم مذكر . كانوا يتحدثون عنه بوصفه خصماً ، أو مكاناً ، بل بوصفه عدواً ايضاً . ولكن الشيخ كان لا يفكر فيه إلا ككائن مؤنث ، وإلا كشيء يهب المنن الجزيلة أو يحبسها . واذا كانت « البحرة » تسلك مسلكاً أحمق أو خبيثاً فلأنها لا تستطيع أن تفعل غير ذلك . إن القمر يذهب بصوابها كما تذهب المرأة بصواب الرجل – كذلك قال الشيخ في ذات نفسه .

كان يجذّف تجذيفاً موصولاً . ولم يكن ذلك عسيراً

عليه لأنه كان يحتفظ بسرعته دائماً ، ولأن سطح المحيط كان أملس صقيلاً باستثناء بعض الأخاديد التي كان التيار يحدثها بين الفينة والفينة. وكان قد عهد الى التيار في أن يقوم بثلث المهمة، حتى اذا بزغ الفجر أدرك أنه قد اندفع الى أبعد مما كان يرجو أن يبلغه في هذه الساعة .

لقد جربتُ الآبار العميقة اسبوعاً كاملاً ، فلم أفز بشيء . كذلك قال في ذات نفسه . أما اليوم فسألقي شباكي في مستعمرات البينيث والخنيزيري ، ولعلي أقع على واحدة ضخمة بينها .

وقبل أن يكتمل ضوء النهار أخرج الشيخ أطعامه ، وكاد يندفع مع التيار ، وغاص واحد من تلك الأطعام الى عمق مقداره أربعون قامة . وغاص الطعم الثاني الى عمق خمس وسبعين قامة ، على حين غاص الثالث والرابع في المياه الزرقاء الى عمق مئة قامة ومئة وخمس وعشرين قامة على التعاقب . وكان كل طعم يتدلى مطأطىء الرأس وساقُ الصنارة في داخل السمكة الطعم ، وقد شُدت وخيطت في إحكام ، على حين كان الجزء البارز من الصنارة ، القوس والرأس ، مغطى بالسردين الطازج. وكانت كل من سمكات السردين قد سُلكت من خلال عينيها الاثنتين بحيث شكل مجموعها ضرباً من الاكليل فوق الفولاذ الناتىء . وبكلمة ، لم يكن ثمة مليمتر واحد من تلك الصنارة المعدة لصيد احدى السمكات الكبار إلا وهو حسن الرائحة طيب المذاق .

وكان الغلام قد أعطاه اثنتين من سمك التن الصغير الطازج، أو الخنيزيري . وكان الشيخ قد علقهما بخيطي الصنارة الأشد

إمعاناً في الغوص ، فوترتاهما وكأنهما الرصاص . أما الخيطان الآخران فكان قد علق بهما سمكة ضخمة زرقاء من النوع المعروف بالعدّاء ، وأخرى صفراء من النوع المعروف بسمك الكراكي . وكان قد استعملها من قبل ، ولكنهما كانتا ما تزالان في حال حسنة جداً . وأياً ما كان ، فالسردين الممتاز كان جديراً بأن يهبها عبيراً وجاذبية . وكان كل من الخيوط في مثل ثخانة قلم رصاصي كبير ، وكان معقوداً حول عود أخضر ليّن ، فما إن يُجذب الطعم أو يمسّ حتى يغوص العود في الماء . وكان الشيخ يحتفظ بلفيفتين من الخيوط طول كل منها أربعون قامة ، ففي ميسوره أن يستعين بهما اذا ما احتاج الى مزيد من الخيوط وتطلبت سمكة ما خيطاً يزيد طوله على ثلاثمئة قامة .

وفي تلك اللحظة راقب الرجل وَضْعَ العيدان الثلاثة من فوق جانب القارب ، وجدّف في تؤدة لكي يُبقي خيوط الصنارة عمودية مشدودة الى اعماقها السويّة . كان الظلام قد توارى ، وكانت الشمس على وشك أن تشرق بين لحظة ولحظة .

ثم ان الشمس انبثقت من البحر رقيقةً مهزولة ، وغدا في ميسور الشيخ ان يرى القوارب الأخرى ، خفيضة مع مستوى الماء غير نائية عن الشاطىء ، وقد انتشرت عبر التيار . ثم ازدادت الشمس اشراقاً ، وانعكس وهجها على صفحة الماء . حتى اذا تقدمت في معارج السماء عكسَ البحر المستوي أشعتها اللاهبة الى عيني الشيخ فكادت تحرقها . وجدّف من غير أن ينظر اليها ، وخفض بصره نحو الماء ، وراقب الخيوط الغائصة

على نحو مباشر في ظلمات اليمّ . لقد أمسك بها في وضع مستقيم ليس يقدر على مثله أي رجل آخر بحيث كان ثمة عند كل مستوى من مستويات المحيط طعمٌ ينتظر ، حيثما أراد له أن ينتظر تماماً ، أيما سمكة يتفق أن تسبح هناك . أما الصيادون الآخرون فكانوا يدعون التيار يتقاذف خيوطهم ، وكثير ما تكون تلك الخيوط على عمق ستين قامة في حين يظنها الصيادون على عمق مئة .

أما أنا فأمسك بالخيوط في ضبط . كذلك قال الشيخ في ذات نفسه . كل ما في الأمر أني لم أعد محظوظاً على الاطلاق . ولكن من يدري ؟ لعلي اليوم أن أوفَّق الى شيء . ان كل يوم من الأيام يفتح للانسان صفحة جديدة . وان من الأفضل أن يكون المرء محظوظاً ، ولكني أوثر أن أكون دقيقاً . حتى اذا أقبل الحظ بعد ذلك وجدني على أتم الاستعداد .

وازدادت الشمس ارتفاعاً بعد ساعتين من الزمان ، ولم يُنزل النظرُ الى الشرق أذى كبيراً بعينيه . كانت ثمة في مدى البصر ثلاثة قوارب ليس غير ، وكانت تتمهل خفيضة جداً ، قريبة جداً من الشاطىء .

وقال في ذات نفسه : منذ صباي الأول والشمس المبكرة تؤذي عينيّ . ومع ذلك فهما ما تزالان صالحتين . وعند المساء ، أستطيع أن أنظر في وجهها — هي الشمس — من غير أن تصاب عيناي بالسفعة . أما في الصباح فالنظر الى الشمس يورثني ألماً شديداً .

وفي تلك اللحظة بالذات بصُرَ بنسر بحري ذي جناحين طويلين

سوداوين يحوّم أمامه في السماء . وما هي إلا لحظة حتى أسفّ النسر على نحو خاطف ، مائلاً على جناحيه المنحرفين إلى الوراء، ثم عاود التحويم من جديد .

وقال الشيخ في صوت عال :

– « لقد أنهى مباحثه . لقد اكتشف شيئاً . »

وجذّف في بطء وفي اطراد إلى حيث كان الطائر يحوّم . ولم يصطنع الشيخ السرعة ، وكان حريصاً أبداً على أن يُبقي خطوط صنارته مستقيمة متوترة . ولكنه سبق التيار بعض الشيء بحيث ظل يصطاد في دقة وضبط ، وإن يكن اصطياده ذاك أسرع مما كان جديراً به أن يكون لو لم يحاول أن يلحق بالطائر .

وحلّق الطائر في الفضاء ، ثم انشأ يحوّم وجناحاه جامدان لا حراك بهما . وفجأة انقضّ من حالق . وبصُر الشيخ بسمكات طائرة تنبثق من الماء وتُقلع في يأس فوق سطح البحر .

وقال الرجل العجوز في صوت عال :

« دلافين ! دلافين ضخمة ! »

وسحب المجذافين من محوريهما ، وأخرج صنارة صغيرة من تحت مقدّم القارب . كانت لها قاعدة معدنية وشصّ متوسط الحجم . وعلّق بالشص طعماً من السردين . وألقاه من جانب، ثم شدّ الخيط إلى حلقة في مؤخر القارب . ثم طعّم صنارةً اخرى وتركها تتثنى في ظل القيدوم * . وعاود التجذيف ومراقبة الطائر الاسود الطويل الجناحين . وكان قد أسفّ ، الآن ، حتى لكاد يلامس سطح الماء .

* قيدوم المركب : مقدمه .

وفجأة انحرف الطائر منقضاً من جديد على السمكات الطائرة، ثم رفرف بجناحيه في جنون ، ولكن على غير طائل . وكان في ميسور الشيخ ان يرى الانتفـاخ الطفيف الذي أحدثته الدلافين الكبيرة ، على وجه الماء ، فيما هي تطارد الاسماك الفارّة . وكانت الدلافين تشقّ طريقها تحت الماء ، في سرعة بالغة ، متعقبة تلك الاسماك ، رجاة ان تكون لها بالمرصاد حين تعاود الهبوط . وقال الشيخ في ذات نفسه : إنها جمهرة ضخمة من الدلافين . وإنها لمنتشرة في كـل مكان . وليس للاسماك الطائرة كبير حظّ في النجـاة . والطائر نفسه لن ينال من ذلك كله شيئاً . فالاسماك الطائرة أضخم من أن يقدر عليها ، وهي تنطلق في سرعة خاطفة.

وراقب الاسماك الطائرة وهي تنبجس من الماء الكرّة تلـو الكرّة ، وجهود الطائر الضائعة من أجـل الفوز باحداها . وقال في ذات نفسه : لقد أفلتت هذه الجمهرة مني . إنهـا بعيدة جداً ، وسريعة جـداً . ولكن من يدري ، فلعلي أن أفوز بواحـدة منها تائهة ، ولعل سمكتي الكبيرة أن تكـون غير بعيدة عنهـا . إن سمكتي الكبيرة يجب أن تكون في مكان ما .

وفوق البرّ نهدت السحائب وكأنها الجبال . ولم يبق من الشاطىء غير خط طويل أخضر تنهض خافه الكثبان الزرقـاء الرمادية . كانت المياه الزرقاء داكنة ، الآن — داكنة إلى حـدّ يكاد يجعلها بنفسجية . وحين خفض الشيخ بصره نحوها رأى طُفاوة البحر * الحمراء في المياه الداكنة ، والضوء العجيب الذي ارسلته

* أو البلنكتون plankton ويقصد بها الكائنات الحية النباتية أو الحيوانية الطافية في البحر . (المعرب)

الشمس آنئذ . وراقب خيوطه فألفاها تنحدر في اللجّة على نحو مستقيم حتى تغيب في الاعماق . وغمرته السعادة لرؤية طفاوة البحر تلك لأنها كانت تعني وجود السمك في وفرة . وكانت الشمس مرتفعة جداً ، وكانت الاضواء العجيبة التي أحدثها انعكاسها على صفحة الماء تؤذن بأن الجوّ سوف يكون جيداً ، وكذلك أفادت أشكال السحاب المخيمة على البرّ . ولكن الطير كان قد احتجب عن البصر ، أو كاد ، وما عاد يبدو فوق سطح الماء شيء باستثناء باقات من عشب سارغاس الاصفر الناصل اللون ، ومثانة ارجوانية ، هلامية ، قزحية لرئة بحر * كانت تطفو بحذاء القارب . لقد انقلبت على جنبيها ، ثم قوّمت وضعها . وطفت مبتهجة مثل فقّاعة الصابون ، وأذنابها الأرجوانية القاتلة البالغ طولها نحواً من متر تنسحب وراءها في الماء .

وقال الشيخ :

— « آغوا مالا agua mala . إذهبي أيتها العاهرة ! »

ومن غير أن يترك مجاذيفه انحنى قليلاً إلى أمام وحدّق في الماء ، فرأى السمكات الدقاق المصبّغة بلون الاذناب المنسحبة ، والسابحة بين تلك الاذناب في الظل الصغير الذي بسطته الفقّاعة الطافية . كانت لها مناعة تقيها سمّ رئات البحر ، ولكن البشر لا يتمتعون بمثل تلك المناعة . فما ان تعلق بعض أذنابها بخيط الصنارة وتمس بلزاجتها ولونها الأرجواني يد الشيخ أو ذراعه ، فيما هو يتربص باحدى السمكات الدوائرّ ، حتى تتقفّع تلك اليد أو الذراع وتعلوها قروح كالتي يثيرها اللبلاب السّامّ، أو

* رئة البحر او المدوسة حيوان بحري عادم الفقرات . (المعرب)

السنديان السامّ . ولكن الأذى الذي تلحقه الـ « آغوا مالا » خاطف مؤلم كضربة سوط .

وكانت الفقاقيع القزحية اللون فاتنة . ولكنها كانت أشدّ الكائنات البحرية مخادعة وغدراً ، وكان الشيخ يحب أن يرى سلاحف البحر الضخمة تلتهمها . وكانت السلاحف إذا ما بَصُرت بها انقضّت عليها من أمام ، مغمضةً عيونها لكي تنعم بالوقاية التامة ، ثم تلتهمها جسداً وأذناباً . لقد أحب الشيخ مشهد السلاحف وهي تفتك برئات البحر هذه ، وأحب أن يمشي فوقها ، على رمل الشاطىء ، بعد هدوء العاصفة ، وان يسمع فرقعتها حين يدوسها بأخمصيْ قدميه القاسيين كالقرون .

لقد أحب السلاحف الخضراء ، والسلاحف الصقرية المناقير ، بأناقتها وسرعتها وثمنها الغالي ! على حين كان يستشعر ازدراءً وديّاً لذلك الضرب من السلاحف الضخمة الحمقاء « العديمة الرشاقة » الصفراء الدروع ، السالكة في حبها مسالك غريبة ، الملتهمه رئات البحر مبتهجةً مغمضة العيون .

ولم يكن متحجر الفؤاد مع السلاحف برغم انه انصرف إلى صيدها سنوات وسنوات . كان يأسى لها جميعاً ، حتّى تلك السلاحف الكبيرة « ذوات الظهور الشبيهة بالصناديق » والّتي يبلغ طولها طول القارب ، وتزن طناً . إن معظم الناس لا يحملون في أفئدتهم ذرّة من الشفقة على السلاحف لأن قلب السلحفاة يواصل الخفقان بعد انقضاء بضع ساعات على نحرها . ولكن الرجل العجوز قال في ذات نفسه : إن لي أنا أيضاً مثل هذا الفؤاد ويداي وذراعاي مثل أيدي السلاحف وأذرعها . وإلى هذا فهو

يأكل بيضها الابيض لكي يُفرغ في جسده القوة . لقـد فعل ذلك طـوال شهر نوار ، حتى إذا أقبل شهرا ايلول وتشرين الاول كان في ميسوره أن يواجه السمكة الضخمة حقاً بعزمٍ حديد .

ليس هذا فحسب . بل لقد كان من دأبه أن يشرب كل يوم مقداراً من زيت كبد القرش ، بالاناء المعدني الكبير المفضّل في تلك السقيفة التي يضع فيها كثير من الصيادين عُدَدهـم . فهناك كان ذلك الزيت مبذولاً لطالبيه من الصيادين . وكـان معظمهم يكره مذاقه . ولكنه لم يكن أسوأ من النهوض في مثـل الساعـة المبكرة التي ينهضون فيها صباحاً . وإلى هـذا فقد كـان علاجاً ممتازاً للزكام والنزلة الوافدة ، وكان ذا فائدة كبيرة للعين .

وهنا رفع الشيخ بصره نحو السماء فرأى الطـائر يحوّم من جديد .

وقال في صوت عال :

— « لقد وجد سمكةً . »

ولم تنبثق من سطح الماء أيمـا سمكة طائرة ، ولم تنتشر السُمَيكات ههنا وههناك . ولكن فيما كان الشيخ يراقب ، بصُرَ بسمكة تُنّ صغيرة تثب في الهواء ثم تستدير وتنقض غائصة في الماء . وأومض التنّ لحينيّـاً في وجه الشمس ، وبعد ان انقلب غائصاً في اليمّ برز من الماء ثانٍ وثالث وراحت جميعها تتواثب في كل ناحية ، ماخضةً المـاء ، قافزة قفزات طويلة خلف الأطعام . كانت تطوّقها وتستاقها ذات اليمين وذات الشمال .

وقال الشيخ في ذات نفسه : إذا لم تنطلق في سرعة بالغـة

فسوف أقبض عليها . ثم راقب جمهرة الاسماك تلك وهي تثير الزبد على وجه الماء ، والطائر يسفّ فجـاءة ويغوص التماساً للسُمَيْكات التي عصف بهـا الذعر فأكرهت على أن تفزع إلى السطح .

وقال الرجل العجوز :

— « هذا الطائر يُسعف كثيراً . »

وفي تلك اللحظة عينها ، توتر خيط الصنارة التي في مؤخر القارب ، تحت قدمه المطوّقة بعروة الخيط . فاطّرح مجذافيه : واستشعر ثِقلَ جذبـة التنّ الصغير المرتعشة ، فيما هو يمسك بالخيط في إحكام ، ويجذبه نحوه . وتعاظم ارتعاش التنّ ، وصار في ميسور الشيخ أن يرى في الماء ظهر السمكة الازرق المسودّ وجنبيها الذهبيين قبل ان يرفعها من فوق حافة القارب ويقذف بها إلى داخله . واستلقى التنّ في مؤخر المركب ، تحت أشعة الشمس اللاهبة ، مكتنزاً قنبليّ الشكل . وفتح عينيه الضخمتين الغبيتين ، وراح يخبط قعر المركب بذيله النظيف الرشيق الحركة خبطاً خاطفاً مرتعشاً . لقد اختنق . وبدافع من الشفقة ضربـه الشيخ على رأسه ، ورفسه بقدمه — وكان جسده ما يزال يرتعد — إلى مؤخرة القارب الظليلة .

وصاح الشيخ :

— « سمكة خنَيزيرية . إنها جديرة بأن تصبح طُعماً جميلاً ، وان وزنها لا يقل عن عشرة أرطال . »

ولم يذكر متى شرع يخـاطب نفسه ، أول مرة ، بصوت عال ؟ كان في الايام الخالية يغني وهو منفرد ، ولقد غنى في موهن من الليل ، بعض الاحيان ، حين كان وحده يدير السكّان

في مراكب صيد السمك أو قوارب صيد السلاحف . ولعله إنما شرع يتكلم بصوت عالٍ ، وهو متوحد ، عندما فارقه الغلام . ولكنه لا يذكر ذلك . ففي تلك الايام التي تعاون فيهـا هو والغلام على الصيد كان مـن عادتهما ان لا يتكلما إلا إذا دعت الضرورة إلى الكلام . كانا يتحدثان في الليل ، أو حين تعوقهما الرياح عن العمل . ففي البحر ليس مـن المستحسن أن يتكلم المرء من غير ما داع ، ولقد كان الشيخ يؤمن دائماً بهذه السنّة ويحترمها . أما الآن ، فقد افرغ أفكاره غير مرة في قالب مسموع إذ لم يكن ثمة أحدٌ قد يزعجه ذلك .

وقال في صوت عال :

— « لو سمعني النـاس أتكلم بصوت مرتفع اذن لظنوا انني معتوه . ولكنْ ما دمت غير معتوه فلست أبالي بظنونهم . وعلى أية حال فيجب أن لا أنسى ان عند الاغنياء راديوات تتحدث اليهم في مراكبهم ، وتأتيهم بأنباء مباريات البيسبول . »

وقال في ذات نفسه : ليس هـذا أوان التفكير بالبيسبول . انه اوان التفكير في شيء واحد ليس غير : الشيء الذي خُلقتُ من أجله . وقد يكون حول تلك الجمهرة إحدى السمكات الكبيرة — كذلك فكّر الشيخ . أنا لم أصد إلا سمكة ضالة من ذلك السمك الخنيزيري المنطلق بحثاً عن الرزق . ولكن انطلاقه كان سريعاً ممعناً في البعد . ومن عجب ان كل مـا يبرز على سطح الماء اليوم ، يعدو بسرعة البرق ويتجه نحو الشمال الشرقي . هل للساعة علاقة بذلك ، أم أنهـا علامة من علامات الاحوال الجوية لا أعرفها ؟

ولم يعـد في ميسوره أن يرى خط الساحل الاخضر . كل

ما كان قادراً على رؤيتـــه ُقنن ُ الكثبان الزرق التي بدت بيضاء وكأن الثلج كان يكللها ، والسحب التي تراءت فوقها أشبه بجبال ثلجية عالية . كان البحر داكناً جداً ، وكان النور يشكّل على وجه الماء مواشير من الضياء. وذابت رُقع الطُفاوة البالغة آلافاً مؤلفـــة ً تحت وهج الشمس التي انتهت إلى كبد السماء . وإذا بالشيخ لا يرى غير المواشير الكبيرة العميقة في المياه الزرقاء وغير خيوطه الغارقة مستقيمة ً متوترة ً في الاعماق . وقدّر ان عمـــق المحيط هناك يبلغ ميلاً ً واحداً .

وعاودت سمكات التنّ الهبوط إلى مـــا تحت الماء . وكان الصيادون يخلعون اسم التن على جميع تلك الضروب من السمك ، ولا يميزون كل طائفة منها بالعَلَم الذي ُتعرف بـــه إلا حين يعضون لبيعها أو لاستبدالها بالأطعام . وكانت أشعة الشمس قد غدت لاهبة ، ولقد استشعرها الشيخ على مؤخر عنقه ، واحس بالعرق يتحدر على ظهره وهو يجذّف .

وقال في ذات نفسه : في ميسوري ان ادع القارب يجري مع التيار ، وأنام بعد أن الفّ طرف الحبل حول إبهام قدمي لكي أفيق في الوقت المناسب. ولكن هذا هو يومي الخامس والثمانون ، وينبغي ان أعمل في يقظة واحتراس .

وفي تلك اللحظة ذاتها ، وكان يراقب خيوطـه ، رأى أحد العيدان الخضر الناتئة التي تقوم مقـــام العوّامات يغطس فجأة في الماء .

وقـــال :

— « اجل ،أجل ، ها انا ذا ! »

وسحب المجذافين من غير ان يدعها يمسان القارب . وانحنى

إلى امام ملتمساً الخيط فأمسكه في رفق بين الابهام والسبابة من يده اليمنى . فلم يستشعر فيه توتراً ولم يجد له ثقلاً . وأطبق يده على الخيط في غير إحكام . وما هي إلا برهة حتى أحس بجذب متردد ليس بالصلب ولا بالثقيل ، فعرف أي شيء كان وراء ذلك على وجه الضبط . فعلى عمق مئة قامة كان سَيّف * يأكل السردين الذي يغطي رأس الصنارة وساقها حيث اخترق الشص المطرّق باليد رأس التن الصغير .

وأمسك الشيخ بالخيط في رقة . وبيده اليسرى ، وفي رفق ، حل العقدة التي تشده إلى العود . وهكذا صار في ميسوره أن يجعله ينساب بين أصابعه من غير أن تشعر السمكة بأي توتر .

وفكّر الشيخ : ما دمتُ في مثل هذا الشهر ، وعلى هذا البعد عن الساحل فليس من ريب في انها سمكة ضخمة جداً . ثم انشأ يخاطب السمكة قائلاً :

— « كلي هذه الاطعام ، أيتها السمكة ، كليها ! أرجوك أن تأكليها ! لقد حفظتها طازجة من أجلكِ أنت ، على عمق ستمئة قدم في ذلك الماء البارد وتحت جنح الظلام . هيا ، قومي بجولة أخرى في العتمة ، ثم ارجعي وكليها ! »

واستشعر الجذب الرفيق ، ثم أحس بجذبة أعنف : لقد كان انتزاع رأس سردينة ما من الشص أكثر صعوبة على ما يظهر ولكن هذا كله لم يتكشّف عن شيء .

وصاح الرجل العجوز :

— « تعالي ! قومي بجولة أخرى ! ليس عليك إلا أن

---

* سمكة ضخمة قوية ذات خطم يشبه الرمح .

تستروحيها ! أليست شهية ؟ كلي من السردين ما تشائين الآن، وحـــين تنتهين فهناك سمك التنّ . إنه مكتنز اللحم ، بارد ، لذيذ . لا تكوني خجلة أيتها السمكة ! كليها ! »

وانتظر ، والخيط بين ابهامه وسبابته ، مراقباً هذا الخيط وسائر الخيوط في آن معــاً لأن السمكة قد تسبح عالياً أو نازلاً . ثم أحس بالجذبة الرفيقة نفسها ، كرة اخرى .

وصاح الرجل العجوز :

— « لقد اقبلتْ عليها . يا الهي ساعِدْها على التهامها ! »

ومع ذلك ، فلم تلتهمها . لقد ولت السمكة . ولم يستشعر شيئاً ما بعد ذلك .

وقال :

— « من المستحيل أن تذهب . المسيح يعلم ان من المستحيل أن تذهب . إنها تقوم بجولة . لعلها ازدردت شصاً من قبل فهي لا تزال تذكر شيئاً من الالم الذي أورثها إياه . »

ثم انه أحسّ بالخيط يُجذب ، كرة أخرى ، جذباً رفيقاً . وأشرق وجهه بالبشر .

وقال :

— « لقد قامت بجولة ليس غير . ولسوف تلتهمها الآن . »

وغمرته السعادة وهو يستشعر انجذاب الخيط الرفيق . ثم أحس بشيء قاس وثقيل إلى حد لا يصدق . ولم يكن ذلك غـــير السمكة . فأرخى الخيط ، وأرخى ، وأرخى ، مستنجداً باحدى اللفيفتين الاحتياطيتين . وفيما الخيط يمعن في الغوص ، منساباً في رشاقة من بين أصابع الرجل العجوز ، كان لا يزال في استطاعته أن يُحسّ بالثقل العظيم عـلى الرغم من ان ضغط إبهامه وسبابته

كاد يكون غير ملحوظ .

وقـال :

ـ « أيّ سمكة هذه ! لقد اعترضت الصنارة فمهـا الآن . وانها لتفرّ بها . »

وفكّر : وبعد ذلك سوف تستدير . سوف تبتلعها . ولم يقل ذلك ، لأنه كان يعلم ان المرء إذا عبر عن فرحه باقتراب النصر فقد لا يرى وجه النصر أبداً . لقد أدرك أي ضخامـة كانت لتلك السمكة . وتمثلها سابحة في الظلمات والتنّ معترض في حلقها . وفي تلك اللحظة أحس بالسمكة تكف عن الحركة ، ولكن الثقل ما يزال هناك . ثم تعاظم الثقل ، فأملى جزءاً إضافياً من الخيط وأحكم ضغط سبابته وإبهامه لحظة . فازداد الثقل تعاظماً ، وانشأ يغور على نحو عمودي مستقيم .

وقال الشيخ :

ـ « لقد فازت بها . ويجب عليّ الآن أن أدعها تلتهمها ، وتلتهمها جيداً . »

وترك الخيط ينساب من خلال أصابعه ، فيما انحنى إلى أمام باسطاً يده اليسرى ، وأوثق طرفي الخيطين الاحتياطيين بالعروة المعدّة لهذا الغرض في طرف خيط ثـالث . وهكذا أمسى على أحسن استعداد . صار عنده ثلاث لفائف من الخيوط الاحتياطية طول كل منها اربعون قامة ، إلى جانب اللفيفة التي كان يستعملها .

وقال مخاطباً السمكة :

ـ « هيا ، كلي قطعة صغيرة أخرى . كليها جيداً ! »

وفي ذات نفسه قال : كليها حتى تغيب الصنارة في قلبك وتقتلكِ . تعالي في سهولـة ويسر ودعيني أطعنكِ بالحربون .

حسن جداً . هل أنت مستعدة ؟ هل جلست إلى المائدة منذ وقت طويل ؟

— « والآن ! » قال ذلك بصوت عال ، جاذباً بكلتا يديه جذباً شديداً . وكسب مقداراً من الخيط طوله ياردة واحدة ، ثم جذب وجذب ، متمايلاً ذات اليمين وذات الشمال ، بأقصى ما يستطيع من قوة ، دائراً حول نفسه ، مستعيناً بثقل جسده كله .

ولم يثمر ذلك الجهد شيئاً . لقد ابتعدت السمكة في تؤدة ، وعجز الشيخ عن ان يرفعها إنشاً واحداً . كان حبله متيناً معداً للسمكات الثقال . ولقد شده إلى ظهره حتى توتر وأخذت حبّات الماء تتواثب من حوله . ثم ان الحبل شرع يطلق فحيحاً بطيئاً في الماء . ولم يفلته الشيخ ، مستنداً إلى مقعد التجذيف ، منحنياً إلى الوراء لكي يكون أقدر على مقاومة القوة الجاذبة . وبدأ القارب ينحرف شيئاً فشيئاً نحو الشمال الغربي .

وانطلقت السمكة على نحو موصول ، وانطلق هو معها ، في بطء ، فوق المياه الهادئة . كانت الاطعام الاخرى ما تزال في أعماق المياه ، ولكن لم يكن ثمة ما يمكن عمله .

وقال الشيخ في صوت مرتفع :

— « ليت الغلام كان معي . إن سمكة تجرّني ، وأنا منها بمثابة وتد الجر . ولقد كان في استطاعتي أن أشدّ الخيط شداً أقوى ، ولكني أخاف ان تقطعه السمكة ، ان فعلْتُ . يجب أن أتشبث بها ما استطعت ، وأن أملي لها حين تكون في حاجة إلى ذلك . واني أشكر الله على ان السمكة تمضي إلى أمام بدلاً

من أن تهبط إلى أدنى . »

ما الذي سأعمله إذا ما وطنتِ النفس على الهبوط إلى أدنى ؟ لست أدري . ما الذي سأعمله إذا مـا غاصت وقضت نحبها ؟ لست أدري . كل مـا أدريه هو اني سوف أصنع شيئاً . ان هناك أشياء كثيرة في ميسوري أن اصنعها .

وتشبث بالخيط فوق ظهره وراقب انحرافه في المـاء ، بينما كان القارب يتجه نحو الشمال الغربـي في اطّراد .

وقال بينه وبين نفسه : إن ذلك سوف يقتلها . إنها لا تستطيع أن تفعل ذلك إلى آخر الدهر . ولكنّ اربـع ساعات تقضّت ولا يزال ذلك السيف الهـائل يشق عباب الماء نحو عرض البحر من غير انقطاع جاراً القـارب وراءه ، فيما الرجل العجوز يشد بالخيط ، متقوس الظهر ، في قوة وعزم .

وقـال :

— « لقد أطعمتها الشص عند الظهر . ثم لم أر لهـا وجهاً حتى الآن . »

وكان قد ضغط قبعته المصنوعة من القشّ فوق رأسه ضغطاً شديداً ، قبل أن يوفق إلى إقحام الشص في فم السمكة ، فاذا هي تحز جبينه حزاً موجعاً . واستبدّ بـه الظمأ أيضـاً . فركع محاذراً أن يقطع الخيط ، وانزلق نحو مقدم الزورق مـا استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وبسط احدى ذراعيه التماساً لزجاجة المـاء . وفتح الزجاجة وشرب بضع جرعات . ثم استند إلى القيدوم ، ليقعد بعد على السارية المرفوعة من مكانها ، والتي كان الشراع قـد لُفّ حولها ، وحاول ان لا يفكر — أن يتجلـد ويصبر ليس غير .

ثم التفت إلى وراء ، فإذا هو غير قادر ، بعد ، على أن يرى شيئاً من اليابسة . وقال في ذات نفسه : لن يقدّم ذلك ولن يؤخر . في استطاعتي ان ارجع على أضواء هافانا . ولن تغرب الشمس قبل ساعتين اثنتين ، ولعل السمكة ان ترتفع خلال هذه الفترة . وإذا لم ترتفع فقد تفعل ذلك مع القمر . وإذا لم يتم ذلك فلعله ان يتم مع بزوغ الشمس . أنا لا استشعر أي مغص ، واني لأحس بفيض من القوة . إنها هي التي ابتلعت الشص ، لا أنا . ولكن ينبغي ان تكون هائلة جداً ، هذه السمكة ، حتى تشدّني على هذا النحو . لا شك في أنها تعضّ على المعدن بأسنانها . لشد ما أتمنى لو أستطيع أن أراها ، لحظة واحدة ليس غير ، لكي أعرف أيّ خصم أقارع .

ولم يغير السيف لا مسلكه ولا اتجاهه طوال ذلك الليل — أو هذا على الاقل ما استطاع الشيخ أن ينتهي اليه من مراقبته مواقع النجوم . وأمسى الجو بارداً بعد أن غربت الشمس ، وجف عرق الرجل العجوز على ظهره وذراعيه وقدميه الهرمتين . وكان قد رفع ، خلال النهار ، ذلك الكيس الذي يغطي صندوق الاطعام ونشره تحت أشعة الشمس كي يجف . حتى إذا غابت الشمس طوق به عنقه فتدلى جزء منه فوق ظهره . وفي احتراس أمرّ ذلك الجزء من تحت الحبل الذي كان يعترض ، الآن ، منكبيه . وكان في ذلك ما زوّده بضرب من الوسادة خفف من وطأة الحبل على جسده . ليس هذا فحسب ، بل لقد وفق إلى ان يستند بصدره إلى مقدم القارب فيجد في ذلك بعض الراحة . والحق ان وضعه ذاك انتهى إلى أن يكون أقل

إيلاماً ليس غير . ولكنه اعتدّه ، بالقياس إلى وضعه السابق ، مريحاً أو يكاد .

وقال في ذات نفسه : لا حيلة لي فيها ، ولا حيلة لها فيّ . ما دامت تواصل خطتها هذه ، على الاقل .

ووقف لحظة وبالَ من فوق جانب الزورق ، وتطلّع إلى النجوم كي يتحقق من الوجهة التي يتخذها . ومن أعلى كتفيه حتى صفحة الماء بدا الخيط أشبه ما يكون بخيط ذي توهج فوسفوري . كان سيرهما قد أمسى أبطأ من ذي قبل ، ولم يكن الوهج المنبعث من هافانا قوياً شأنه في ما مضى ، فاستنتج الشيخ من ذلك ان التيار يحملها في اتجاه الشرق . وقال في ذات نفسه : إذا فقدتُ أنوار هافانا فمعنى ذلك اننا نمعن في الاتجاه نحو الشرق . لأنه لو واصلت السمكة سيرها على نحو مستقيم اذن لقُدّر لي أن ارى الاضواء بضع ساعات أخرى . ليت شعري عمّ أسفرت مباريات البيسبول الكبرى اليوم ؟ لا ريب في ان من الرائع ان يتمكن الانسان من متابعة تلك المباريات بالراديو فيما هو منهمك في الصيد ! ثم أضاف مخاطباً نفسه : فكّرْ فيها دائماً . فكّرْ في ما أنتَ بسبيله . يجب ان لا ترتكب حماقة ما .

وبعدئذ قال في صوت مرتفع :

— « لَشدّ ما أتمنى لو كان الغلام معي. إذن لمدّ إليّ يد المساعدة ، واذن لشاهد هذا ! »

وفكّر : إن أحداً لا يجوز أن يواجه البحر وحيداً في مثل سني هذه . ولكن لم يكن من ذلك بدّ . يجب أن آكل التنّ قبل أن يفسد . إن هذا يحفظ عليّ قوتي . واذكر، مهما

تكن غير جائع ، ان عليك ان تأكل ذلك التن في الصباح ، أذكرْ ذلك !

وفي موهن من الليل تقدّم خنزيران من خنازير البحر نحو القارب ، وكان في ميسوره ان يسمع وثبهما ونخيرهما . وكان في ميسوره أن يميز لهاث الذكر الغليظ من تنهد الانثى الرفيق .

وقال الشيخ :

— « خنزيران رائعان . انهما يلعبان ويمزحان ويحب بعضهما بعضاً . وان بيننا وبينهما رباطاً من الأخوّة كالذي بيننا وبين السمكات الطائرة . »

ثم شرع يأسى للسمكة الكبيرة التي أوقعها في شركه . وقال في ذات نفسه : إنها فاتنة عجيبة ، وليس يدري أحدٌ مبلغها من العمر . أنا لم أرَ في حياتي كلها سمكة في مثل قوتها أو في مثل مسالكها الغريبة . لعلها من الحكمة والتعقل بحيث تحجم عن الوثوب . وفي استطاعتها ان تهلكني لو وثبت أو اندفعت اندفاعة ضارية . ولكنْ من يدري ؟ لعلها وقعت في الشرك مرات عديدة من قبل فهي تدرك ان هذه الطريقة هي التي يتعين عليها ان تصطنعها في القتال . إنها لا تستطيع أن تعرف ان خصمها الذي تواجهه رجل واحد ليس غير ، وانه رجل هرم عالي السنّ . ولكن أي سمكة هائلة هي ! وأي ثمن سوف تباع به في السوق شرط ان يكون لحمها رقيقاً بعض الشيء ! لقد تناولت الطعم كأنها ذكر ، وهي تشد كأنها ذكر ، وليس ينطوي نضالها على شيء من الذعر . ألا ليت شعري ، هل في رأسها خطة ما ، أم أنها مجرد يائسة مثلي أنا ؟

وذكر كيف ألقم الطعمَ ، ذات مرة ، أحدَ سيفين اثنين.
إن السمكة الذكر تدع السمكة الانثى تغتذي قبلها دائماً .
فما كان من السمكة الّتي نشب الشصّ في حلقها — السمكة الأنثى — إلا أن قاتلت قتالاً ضارياً مذعوراً يائساً ما لبث أن انهك قواها . وطوال تلك الفترة اقامت السمكة الذكر الى جانبها ، عابرة الخيط ، محوّمة معها عند سطح الماء. وانما كان تحويمها قريباً الى حد خشي الشيخ معه ان تقطع الخيط بذنبها الحادّ مثل المنجل وفي مثل حجمه وشكله تقريباً . حتّى اذا جذب الشيخ الانثى بمحجنه وأهوى عليها بالهراوة ، متشبّثاً بمنقارها الذي كان طويلاً كالرمح خشناً مثل ورق الزجاج ، ضارباً اياها على أمّ رأسها الى أن استحال لونها الى لون يكاد يشبه لون القصدير الذي تُطلى به ظهور المرايا ، ثم رفعها هو والغلام الى القارب — حتّى اذا تمّ ذلك كله أقامت السمكة الذكر الى جانب القارب لم تفارقه . وبعد ذلك، فيما كان الرجل العجوز يحرّر الخيوط ويُعدّ الحربون ، وثبت السمكة الذكر عالياً في الهواء ، غير بعيد عن القارب، لترى أين كانت انثاها ثم غاصت في أعماق الماء ، وقد نشرت جناحيها المصبّغين بلون أزرق فاتح وبكلمة اخرى زعانفها الصدرية — وبدت جميع خطوط جلدها العريضة ذات اللون البنفسجي الزاهي . ما كان أجملها ! وما كان أخلصها وأوفاها ! إن الشيخ لم ينسَ ذلك قط .

وقال الشيخ في ما بينه وبين نفسه : هذه أفجع قصة وقعت لي مع أسياف البحر . ولقد رانَ الحزن على الغلام ايضاً فالتمسنا من السمكة القتيل العفوَ والمغفرة ونحرناها

في الحال .

– « ليت الغلام كان معي ! » قال ذلك في صوت عالٍ واستقر على ألواح مقدّم القارب المستديرة ، وأحس من خلالّ الخيط المشدود الى كتفيه ، بقوة السمكة الضخمة تقوده في غير ما انقطاع الى حيث اختارت .

وفكّر الشيخ : لقد غدرتُ بها غدراً ، ولولا حبائلي لما أكرِهَتْ على أن تختار . وكانت قد آثرت البقاء في اعماق المياه القاتمة بعيداً عن جميع الأشواك والحبائل وضروب الغدر . ثم جئت أنا واخترت ان أنطلق الى هنا لكي أبحث عنها بعيداً عن جميع الناس ، بعيداً عن جميع الناس في العالم . وها نحن الآن ، أنا وهي ، متّحدان ، متحدان منذ الظهر . وليس ثمة أحد يمدّ إليّ أو اليها ، يد العون .

وقال في ذات نفسه : لعله ما كان ينبغي أن اكون صياداً ، ولكنْ ذلك هو الشيء الذي خُلقتُ من أجله . يجب ان لا أنسى ، بحال من الاحوال ، ان آكل سمكة التنّ حين يرتفع الضحى .

ومع الفجر أمسك شيء ما بأحد الاطعام التي كانت وراءه . وانقصف العود الأخضر ، وشرع الخيط يندفع فوق حافة ظهر القارب . وفي غمرة الظلام استلّ الشيخ مديته من غمدها ، وانحنى الى الوراء ، ملقياً ثقل السمكة بكاملها على كتفه اليسرى ، وقطع الخيط على خشب الحافة ، ثم انه قطع الخيط الآخر ، الأقرب اليه ، ووصل – في غمرة الظلام ايضاً – ما بين طرفي اللفيفتين الاحتياطيتين . لقد عمل في كثير من البراعة بيد واحدة ، واطئاً بقدمه على اللفيفتين تثبيتاً لهما ،

فيما كان يُحكم عقد الخيطين . وهكذا تمّت له ست لفائف من الخيوط الاضافية . اثنتان من كل من الخيطين الرئيسيين اللذين بترهما : واثنتان من الخيط الذي وقعت سمكته في شركه. وكانت كلها مترابطة .

وقال في ما بينه وبين نفسه : حين يرتفع النهار سوف أنقلب الى الخيط البالغ طوله أربعين قامة وأبتره هو أيضاً وأشدّ الخيوط الاضافية الى غيرها . وبذلك أخسر متّي قامة من حبال الزوارق القطلونية الجيدة ، عدا الشصوص وقواعد الصنانير. ولكن هذه كلها يمكن تعويضها ، اما سمكتي الكبيرة فمن ذا الذي يعوّضني منها اذا ما ألقمت الشص سمكة اخرى فقطعَت ما بيني وبينها ؟ أنا لا أدري ما نوع هذه السمكة التي التهمت الطعم في هذه اللحظة : أهي سيف ، أم عريض المنقار ، أم قرش ؟ أنا لم أسحبها قطّ حتى أعرف . وينبغي أن أتخلص منها في أسرع وقت مستطاع .

ثم قال بصوت عالٍ :

— « ليت الغلام كان معي ! »

وفكّر : ولكن الغلام ليس معك . ليس معك غير جلدك الهرم ، ومن الخير لك ان ترتد الى خيطك الأخير ، الآن ، سواء أكانت الظلمة غامرةً الكون أم لم تكن ، وتقطعه وتضيف خيطَيْ الاحتياط الى سائر الخيوط .

وكذلك فعل . كان عملاً عسيراً في الظلام . وفيما هو منصرف الى العمل وثبت السمكة وثبة طرحته على وجهه أرضاً، وغادرت تحت عينيه جرحاً . وسال الدم على خده بعض الشيء. ولكنه ما لبث أن تخثر وجفّ قبل أن ينتهي الى ذقنه ، فاتخذ

الشيخ سبيله عائداً الى مقدّم القارب واستند الى خشبه . وعدّل وضع الكيس ، وفي عناية بالغة أزاح الخيط الى ناحية جديدة من كتفيه . وإذ اتخذ من منكبيه شبه آلة رافعة ، راح يقدّر – في دقة – قوة السمكة . ليس هذا فحسب ، بل لقد صار في ميسوره أن يُسبل يده في الماء لتتمّ له ، بذلك ، فكرة عن سرعة القارب .

ليت شعري لماذا وثبتْ هذه الوثبة ؟ ينبغي أن يكون الشص المعدني قد انزلق فوق ظهرها الشبيه بالجبل . وليس من ريب في ان ظهرها لا يمكن ان يؤلمها بقدر ما يؤلمني ظهري . ولكنها لا تستطيع أن تستاق هذا القارب الى الأبد ، مهما كانت ضخمة . وعلى أية حال فقد تخلصت الآن من كل ما يعوقني . وان عندي احتياطياً كبيراً من الخيوط . وهل كنت أطمع في شيء أكثر من ذلك ؟

وفي وداعة قال بصوت عال :

– « أيتها السمكة ، سوف أبقى معكِ حتى تحضرني المنية ! »

وهي أيضاً سوف تبقى معي في ما أظن ، كذلك فكَّر الشيخ ، وأنشأ ينتظر ارتفاع الضحى . كان الجو بارداً الآن ، قبيل الفجر ، فالتصق الشيخ بالخشب التماساً للدفء . وقال بينه وبين نفسه : سوف أبقى ما بقيتْ هي . ومع مولد الضوء بَصُرَ بخيطه ممتداً في انحراف نحو أعماق البحر . وتقدّم القارب في اطراد . حتى اذا ما ذر قرن الشمس أصابت أشعتها منكب الشيخ الأيمن .

وقال :

— « انها تتجه نحو الشمال . »

وفكّر : كان خليقاً بالتيار أن يدفع بنا الى بعيد في اتجاه الشرق . ولشد ما اتمنى لو انحرفت السمكة مع التيار . فمثل ذلك يؤذن بأن التعب قد شرع يتطرق اليها . حتى اذا تقدمت الشمس في معارج السماء لم يبدُ على السمكة أيما امارة من امارات التعب . ولكن كان ثمة ظاهرة واحدة مشجعة : فقد كان انحراف الخيط يؤذن بأنها كانت تسبح على عمق أقل من ذي قبل . ولم يكن ذلك ليعني ، ضرورةً ، انها سوف تثب . ولكنها قد تفعل .

وقال الرجل العجوز :

— « دعها تقفز يا رب ! إن عندي مقداراً من الخيوط لمواجهتها . »

وفكّر في ما بينه وبين نفسه : لعلي اذا جذبت الخيط جذباً اشد قليلاً آذاها ذلك فوثبت . والآن ، وقد طلع النهار ، فقد صار من الخير أن تثب كي تمتلىء الجيوب المرصوفة على طول عمودها الفقري بالهواء ، وعندئذ يتعذر عليها الغوص الى الاعماق والموت فيها .

وحاول أن يشدّ الخيط بعض الشيء ، ولكنه كان قد انتهى ، بعد ان التهمت السمكة شصّه ، الى حال من التوتر تكاد تبلغ نقطة الانقصاف . حتى اذا انحنى الى الوراء لكي يجذبه اصطدم بمقاومة افهمته ان من المتعذر عليه تقصير الخيط بعد الآن . وفكّر قائلاً : ينبغي أن لا أشدّه على الاطلاق . ان كل شدّة توسع الشق الذي احدثته الصنارة ، فما ان تثب السمكة حتى تتحرر منها . وعلى أية حال ، فإن

الشمس تمدني بنشاط جديد ، وللمرة الأولى لا أجد الرغبة في النظر اليها .

وكانت اعشاب صفراء قد علقت بالخيط ، ولكن الشيخ رأى في ذلك حملاً جديداً يتعين على السمكة أن تقطره . وسعد بهذا . لقد كانت اعشاب الخليج الصفراء التي اطلقت ذلك الضوء الفوسفوري كله في ساعات الليل .

ووجه الخطاب الى السمكة :

– « ايتها السمكة ! أنا احبكِ وأكن لكِ اعظم الاحترام ولكني سوف اصرعكِ قبل ان ينقضي النهار ! »

وفكر بينه وبين نفسه : فلنرجُ ذلك .

وتقدم نحو القارب طائر صغير مقبل من ناحية الشمال . كان طائراً من تلك الطيور المغردة الحمراء الذنب ، وكان ينطلق مسفاً فوق سطح الماء . ولقد كان في ميسور الشيخ ان يلاحظ انه متعب جداً .

وانتهى الطائر الصغير الى مؤخر القارب ، واستراح هناك . ثم انشأ يحوم حول رأس الشيخ ليستقر فوق الخيط حيث نعم بقسط اكبر من الراحة .

وسأل الشيخ الطائر :

– « ما عمرك ؟ هل هذه أول رحلة تقوم بها ؟ »

ونظر الطائر اليه وهو يتكلم . كان من التعب بمحل جعله يحجم حتى عن التأمل في الخيط ودرسه . ولقد ترنح عليه فيما كانت قدماه الدقيقتان تتشبثان به .

وقال له الشيخ :

– « انه مكين. انه مكين اكثر مما يجب . وعلى كل حال،

فليس ينبغي ان تكون متعباً الى هذا الحد بعد ليلة لا ريح فيها. ما الذي يدعو الطيور الى الفرار ؟ »

وبينه وبين نفسه قال : إنهـا البزاة . البزاة التي تنطلق الى عرض البحر لكي تلقاه هناك . ولكنـه لم يذكر شيئاً مـن ذلك على مسمع من الطائر الذي ما كان في طوقه ان يفهمه على أية حال ، والذي كان خليقاً به ان يتعلم أشياء كثيرة عن البزاة في وقت قريب .

وقال مخاطباً الطائر الصغير :

— « إنعم براحة سابغة ، أيهـا الطائر الصغير . ثم انطلق نحو اليابسة وانتهز فرصلك مثل أي رجل او طائر أو سمكة . »

وشجعه الكلام ، لأن ظهره كان قد تصلّب الليلة البارحة ، فهو يؤلمه ألماً شديداً .

وقال :

— « ابقَ في منزلي اذا شئت . أنا آسف لعدم تمكني مـن نشر الشراع ونقلك الى اليابسة على جناح النسيم الرفيق الذي يهب الآن . ولكن عندي ضيفاً عزيزاً ! »

وفي تلك اللحظة انتفضت السمكة انتفاضة مفاجئـة صرعت الشيخ عند مقـدّم المركب ، وكان خليقـاً بها أن تقذف به إلى أعمـاق اليمّ لو لم يتشبث بجـانب الزورق ويرخي الخيـط بعض الشيء .

وكـان العصفور قد طار حالمـا انتفض الخيط . ولم يوفـّق الشيخ الى أن يراه وهو يطير . لقد لمس الخيـط ، في عناية ، بيده اليمنى ، ثم لاحظ ان يده ملوثة بالدم .

— « هـذا يعني أن شيئاً ما قـد جرحهـا . » قـال ذلك

بصوت مرتفع ، وجذب الخيط ليرى ما اذا كان في امكانه أن يقلب السمكة . ولكنه لم يكد يبلغ نقطة الانقصاف حتى كف عن الجذب ، والتمس سناداً يقاوم به ضغط الخيط .

وقال :

– « وأخيراً شعرتِ بألم الضربة ، أيتها السمكة . وكذلك، شهد الله ، شعرتُ أنا ! »

وأجال طرفه في ما حوله بحثاً عن العصفور ، اذ كان يجد في رفقته عزاء وسلوى . ولكن العصفور كان قد مضى لسبيله .

وقال الرجل في ما بينه وبين نفسه : أنت لم تمكث طويلاً . ولكنك مخطىء لأن المكان الذي تقصد اليه أقسى وأصعب ، حتى تبلغ الشاطىء . كيف أجزتُ للسمكة أن تصرعني بتلك الجذبة المفاجئة ؟ لقد غدوت أبله من غير ريب! أو لعلي كنت أنظر الى العصفور وأفكّرُ فيه . والآن ، ينبغي أن أعمل في يقظة ، وأن آكل التن حتى أحفظ عليّ قوتي .

وقال في صوت مرتفع :

– « ليت الغلام كان معي ! وليتني جئت بشيء من الملح ! »

وحوّل ثقل الحبل الى منكبه الأيسر ، وركع في احتراس ، وغسل يده في مياه المحيط وأبقاها مغمورة هناك مدة تزيد على الدقيقة ، مراقباً الدم وهو ينسحب على وجه البحر ، وحركة المياه المطرد حول يده فيما كان القارب يتابع

طريقه .

وقال الشيخ :

— « لقد تباطأ كثيراً . »

وكان يودّ لو يُبقي يده في المياه المالحة فترة أطول ، ولكنه خشي أن تجذبه السمكة جذبة أخرى مفاجئة . فنهض ، ملتمساً سناداً يقيم به توازنه ، ورفع يده في وجه الشمس . كانت حزّة الخيط هي التي جرحت لحمه . ولكن الجرح كان في الجزء العامل من يده . ولقد عرف انه قد يحتاج الى يديه الاثنتين قبل أن يبلغ هذا الصراع غايته . ومن هنا كانت إصابته بهذا الجرح حتى قبل بدء الصراع أمراً مزعجاً .

وقال حين جفّت يده :

— « والآن يجب أن آكل التنّ الصغير. في استطاعتي أن أسحبه بالمحجن وأنعم بلحمه هنا ، في أمن . »

وانحنى الى أمام ، واستعان بالمحجن على سحب التنّ من تحت مؤخر القارب ، محترساً من أن يمسّ الخيوط الملتفّة . ثم انه نقل الخيط الى منكبه الأيسر كرة أخرى ، متكئاً على يده وذراعه الأيسر ، ونزع التنّ من رأس المحجن ، وأعاد المحجن الى مكانه . حتى اذا تمّ له ذلك وضع احدى ركبتيه على السمكة وانتزع قدداً طوليّة من لحم أحمر داكن ، من مؤخر الرأس حتى الذنب . كانت قدداً إسفينية الشكل وكان قد قطعها من العمود الفقري الى حافة البطن . وحين وُفّق الى انتزاع ست قلد ، نشرها على خشب القيلوم ، ومسح مديته بجانب من بنطلونه ، ثم رفع هيكل التنّ من ذيله وألقاه

في اليمّ .

– « لست أظن أن في استطاعتي أن آكل واحدة بكاملها . » قال ذلك وأمرّ سكينه عبر إحدى القدد . كان في استطاعته أن يستشعر ضغط الحبل الثقيل المطّرد . وتشنجت يده اليسرى . وألقى عليها نظرة اشمئزاز فيما كانت تتشبّث بالخيط تشبثاً شديداً .

وقال :

– « أيّ نوع من اليد أنتِ ؟ تشنجي اذا شئت . اجعلي من نفسك مخلباً ، فلن يفيدكِ ذلك شيئاً ! »

وفكّر قائلاً : هيا ، ونظر الى الماء عند منحرف الخيط ، كُلْ لحم التنّ هذا ، الآن ، فانه جدير بأن يقوي يدك . إن الذنب ليس ذنب اليد ، بعد ان قضيت هذا الوقت كله مع السمكة . ولكنك قد تبقى معها الى آخر الدهر . كُلِ التنّ الآن .

وتناول قطعة حشا بها فمه ، وأنشأ يمضغها في أناة . إنها لم تكن رديئة .

وقال في ذات نفسه : إمضغها جيداً وانتزع جميع عصاراتها . ولا شك في أنك لو اكلتها مع شيء من عصير الليمون الحامض أو عصير البرتقال ، أو مع شيء من عصير الملح ، لكانت أشهى .

وسأل يده المتشنجة التي انتهت الى أن تصبح متصلبة مثل أيدي الموتى :

– « كيف حالكِ ، أيتها اليد ؟ سوف آكل مقداراً اضافياً من أجلكِ . »

وأكل الجزء الآخر من القدة التي كان قد قطعها نصفين . ومضغها في تؤدة ، ثم تفل الجلد .

— « كيف تشعرين الآن ، أيتها اليد ؟ أم أن أوان معرفة ذلك لم يحن بعد ؟ »

وتناول قطعة أخرى وحشا بها فه .

وفكّر بينه وبين نفسه : إن هذا التنّ حافل بالدم . ولقد كنت محظوظاً حين اصطدته بدلاً من ان اصطاد أحد الدلافين . فالدلفين حلو أكثر مما ينبغي . أما التنّ فأبعد ما يكون عن الحلاوة ، ولا تزال قوته كامنة فيه .

وأردف مخاطباً نفسه : وأياً ما كان فليس ثمة غير شيء أساسي واحد : هو أن آكل . وكم أتمنى لو كان عندي قليل من الملح . والشمس ؟ أتفسد ما بقي أم تجفّفه ؟ لست أدري . وإذن فمن الأفضل أن آكل ذلك كله على الرغم من أني غير جائع . إن السمكة هادئة ثابتة . سوف آكل ذلك كله . وعندئذ اصبح مستعداً لاستئناف العمل .

وقال :

— « إعتصمي بالصبر ، أيتها اليد ! إنما أكره نفسي على الأكل من أجلكِ ! »

وبينه وبين نفسه قال : لَشدّ ما أتمنى لو أستطيع أن أطعم السمكة . إنها أختي . ولكنْ يتعين عليّ أن أقتلها وان احتفَظ بقوتي لكي أقدر على ذلك . وفي أناة ووعي ، أكل القدد الأسفينية الشكل كلها .

وتصدّر ، ماسحاً يده ببنطلونه .

وقال :

- « والآن ، في استطاعتكِ أن ترخي الحبل ، أيتها اليد، وفي ميسوري أن أمسكه باليد اليمنى وحدها حتى تكفّي عن هذا الهراء ! »

ووضع قدمه اليسرى على الحبل الثقيل الذي كانت اليد اليسرى ممسكةً به . واتخذ من جسده كله مُخلاّ يخفّف به وطأة الحبل الذي أنقَضَ ظهره .

وقال :

- « يا إلهي ، ساعدني على طرد هذا التشنج . لأني لا أدري ما الذي ستفعله السمكة . »

وبينه وبين نفسه قال : ولكنها تبدو هادئة تتبّع خطتها المرسومة . وفكّر : ولكن ما خطتها ؟ وما هي خطتي؟ إن عليّ أن أرتجل خطة تتفق مع خطتها ، لأنها هي التي تقود ما دامت على هذا العظَم كله . ولو أنها قررت أن تثب إذن لقتلتها . ولكنها تؤثر البقاء في الأعماق ، الى الأبد . وإذن فينبغي أن أبقى معها في الأعماق ، إلى الأبد .

وحكّ يده المتشنجة ببنطلونه ، وحاول أن يليّن أصابعها . ولكنها أبت أن تنفتح . ومن يدري ، فلعلها أن تنفتح إذا تعرّضت لأشعة الشمس . لعلها ان تنفتح عندما تُهْضَم سمكة التن النيئة . ولكن اذا ما اضطررتُ الى استعمالها فعندئذ سأعمد الى فتحها ، مهما يكن الثمن . ولكني لا اريد أن أفتحها الآن عنوةً . أنا أؤثر أن تنفتح هي بطوعها، وان تستأنف الحركة والنشاط ساعة تشاء . وعلى أية حال ، فقد اسأت اليها

كثيراً ، الليلةَ البارحة ، حين تعيّن عليّ ان احل مختلف الخيوط ثم أشد بعضها الى بعض .

وأجال بصره في البحر واستشعر مدى الوحدة التي تكتنفه. ولكنه ظلّ قادراً على أن يرى مواشير الضياء في الأعماق المظلمة ، والخيطَ مندفعاً الى أمام ، وتموجات الماء الساجي العجيبة . كانت ترتفع الآن الى أعلى للقاء الرياح التجارية . وتطلّع أمامه فرأى سرباً من البط البري يناطح السماء ، ثم يغيب ، ثم يبدو من جديد . وأدرك الشيخ أن المرء لا يمكن أن يكون وحيداً ، وحدةً كاملة ، في عرض البحر .

وفكّر في اولئك الذين يخشون أن يركبوا الزوارق وينطلقوا من الشاطىء الى أبعد من مدى النظر . وأدرك انهم على صواب في الاشهر التي تتقلب فيها الأحوال الجوية تقلباً مفاجئاً. ولكنهم اجتازوا هذا الموسم ، ودخلوا في شهور الأعاصير . وحين تخلو هذه الشهور من الاعاصير فلا ريب في انها أجمل ايام السنة على الاطلاق .

وحين تنذر الدنيا بأعصار ، يكون في مستطاعك دائماً ان تقرأ اماراته في السماء ، قبل بضعة أيام ، اذا كنت في اليمّ . انهم لا يرونه من على الشاطىء لأنهم لا يعرفون إلامَ ينبغي أن ينظروا — كذلك قال بينه وبين نفسه . ويجب أن لا ننسى ، الى هذا ، ان شكل السحب حين يُنظر اليها من اليابسة غير شكلها حين يُنظر اليها من البحر . ولكن ليس ثمة اعاصير مقبلة الآن .

وتطلع الى السماء فرأى الغيوم البيضاء المتلبدة على شكل

طبقات متراكمة من « البوطة » الشهية ، ورأى عالياً فوقها ، ريش الطحارير • الرقيقة تناطح سماء ايلول العالية .

وقال في صوت مرتفع :

— « نسيم عليل . هذا الجو يلائمني أكثر مما يلائمكِ ، أيتها السمكة ! »

كانت يده اليسرى لا تزال متشنجة ، ولكنه كان قد شرع يحل عقدتها شيئاً بعد شيء .

وفكّر : أنا اكره التشنج . انه خدعة قذرة من خدع جسدك نفسه . والواقع ان اصابة المرء بالاسهال نتيجة للتسمم البتوميني والتقيؤ الناشيء عنه لأمرٌ مخجل حقاً أمام الناس . أما التشنج فقد كان ينظر اليه نظرته الى شيء أدهى من ذلك وأمرّ ، شيء يُخجل نفس المرء وبخاصة حين يكون وحيداً .

وبينه وبين نفسه قال : لو كان الغلام هنا اذن لفرك يدي وليّنها من الساعد . ولكن لا داعي للجزع ، فلا بد أن تعاودها الحياة .

وفجأةً ، وحتى قبل أن يرى التغيّر الذي طرأ على انحراف الخيط في الماء ، أحسّ بظاهرة جديدة في ثِقل الحبل . فما كان منه إلا أن انحنى على الخيط صافعاً فخذه في قوة وعنف بيده اليسرى المتشنجة ، وأنشأ يتأمل الخيط

• cirrus ، واحدها طحرور ، وهي ضرب من الغيم على شكل خيوط دقيقة متصلة على هيئة فرشاة أو ندف صوفية أو شبكات صغيرة . وتكون في الغالب على هيئة غيمة ريشية صغيرة في أعلى طبقات الجو . (المعرب)

وهو يرتفع .

وصاح :

– « ها هو يصعد . هيّا ، هيّا أيتها اليد ! هيّا أرجوك ! »

وارتفع الخيط في تؤدة واطراد . ثم انفتح الاوقيانوس أمام القارب ، وانبثقت السمكة من الماء ، وكان انبثاقها متطاولاً وكأنه شيء لا نهاية له ، وكان الماء يقطر من جنباتها جميعاً . كانت تتلألأ تحت أشعة الشمس ، وكان رأسها وظهرها بنفسجيين داكنين ، على حين كانت الخطوط التي توشح جانبيها عريضة ذات لون أزرق ليلكي . أما رمحها فكان طويلاً كمضرب البيسبول ، محدداً كالحسام . وانبثقت السمكة بكاملها من الماء ، ثم غاصت من جديد بمثل مرونة الغواص . ورأى الشيخ الى ذيلها الضخم الشبيه بالمنجل يغيب في الماء ، وأخذ الخيط يعدو من جديد .

وقال الشيخ :

– « إنها أطول من الزورق بقدمين اثنين . »

كان الخيط يكرّ في سرعة ، ولكن في اطراد . ولم تكن السمكة مذعورة على الاطلاق . وبيديه الاثنتين حاول الشيخ أن يشدّ الخيط في قوة ، محاذراً دائماً أن يبلغ نقطة الانقصاف . لقد أدرك أنه إن لم يعقْ حركة السمكة بضغط مطّرد فعندئذ يصبح في ميسورها أن تمضي بالخيط كله وتقطعه .

وقال في ذات نفسه : إنها سمكة هائلة ، ويتعيّن عليّ أن أنتصر عليها . ينبغي أن أحول بينها وبين أن تكوّن فكرة عن قوتها ، وما الذي تستطيع أن تفعله اذا ما انطلقت

تعدو . ولـو كنتُ مكانها إذن لأقلعتُ ، في الحـال ، عن كـل شيء ومضيتُ حتى ينقطـع شيء مـا . ولكـن هـذه الحيوانات ليست ، ولله الحمـد ، على مثـل ذكائنـا ، نحن الذين نفتك بها . على الرغم من أنهـا أكثر منا نبلاً وأكثر مقدرة .

وكـان الشيخ قـد رأى في حياتـه كثيراً مـن السمكات الكبار . لقـد رأى كثيرات تزن كـل واحدة منها اكثر مـن ألف رطل ، واصطاد اثنتين في مثل ذلك الحجم . ولكنـه مـا كان يعمل وحده آنذاك . أمـا اليوم فهـو متوحـد عـلى ظهر هذا الزورق ، وقد احتجب الشاطىء عن ناظريـه ، وشُدّ إلى أكبر سمكة قُدّر له أن يراها أو أن يسمع بمثلها عُمْرَهُ كله ، ولا تزال يده اليسرى مطبقة مثل براثن نسرٍ أنشبت في إحدى الطرائد .

وبينـه وبين نفسه قـال : ولكن التشنـج سوف يزايلهـا آخـر الأمـر . لا ريب في أنهـا سوف تلين لتساعـد يـدي اليمنى . إن هناك ثلاثـة أشياء يجب أن تظـل متلازمة تـلازم الأخوة : السمكـة ويـداي الاثنتان . أجـل يتعيّن عليها أن تلين ... فليس جديراً باليد الوفية أن تصاب بالتشنج . وها هي ذي السمكة قـد تباطـأت كرةً أخرى وعـادت الى سرعتهـا السوية .

وفكّـر : اني لأتساءل لمـاذا وثبت ؟ لقـد وثبت وكأنمـا تريد أن تريني مبلغ ضخامتها . وعـلى أية حـال فقـد عرفتُ ضخامتها الآن . ولشدّ ما أتمنى لو أستطيع أن أريها أي رجل أنا . ولكنها قد ترى ، عندئذ ، يدي المتشنجة . وأياً ما كان ،

فمن الافضل ان أدعها تظن اني أكثر رجولةً مما أبدو ، وهكذا أصبح كما ظنّت حقــاً . وتابع تفكيره : أتمنى لو كنت أنا السمكة . ان كل ما فيها متفوق . أما أنا فليس عندي غير إرادتي وذكائي .

واستند إلى الخشب ، وتحمّل عذابه في صبر . وسبحت السمكة على نحو موصول ، وانساب القارب وئيداً عبر الميــاه الداكنة . وثار البحر ، بعض الشيء ، تحت وطأة الريح الهابّة من ناحية الشرق . وعند الظهر انطلقت يد الشيخ المتشنجة مــن عقالها .

— « هو ذا نبأ لا يسرّكِ ، ايتها السمكة ! » قــال ذلك وعدّل وضع الخيط فوق الأكياس التي تغطي ظهره .

واستشعر شيئاً مــن الراحة ، ولكن الألم كان يُلحّ عليه ، برغم انه لم يسلّم بوجود ذلك الألم على الاطلاق .

وقال :

— « أنا لست تقيــاً ، ولكني خليق بأن أتلو « أبانا » و « السلام عليكِ يا مريم » إذا وفقت إلى اقتناص هذه السمكة. بل اني لأقسم لأحجّنّ إلى مزار العذراء إذا ما اصطدتها . ذلك نذرٌ عليّ . »

وشرع يتلو صلواته على نحوٍ آلي . وفي بعض الفــترات كان التعب يرهقه الى درجة تنسيه كلماتها ، فهو يتلوهــا في سرعــة لكي تنطلق ميكانيكياً . وبينه وبين نفسه قال : ان « السلام عليكِ يا مريم » أيسر من « أبانا » وأسهل .

— « السلام عليكِ يا مريم ، يا ممتلئةً نعمةً . الربّ معكِ ، مباركةٌ أنتِ بين النساء ، ومباركةٌ هي ثمرة بطنكِ

يسوع المسيح . أيتها القديسة مريم ، صلي من أجلنا نحن الخاطئين ، الآن، وفي ساعة موتنا ، آمين ! » ثم أضاف : «أيتها العذراء المباركة ، صلي من أجل موت هذه السمكة ، على الرغم من أنها سمكة رائعة ! »

حتى إذا أتم صلواته استشعر انه أنشط من ذي قبل . بيد أن الالم ظل على حدته تماماً ، بل لعله انتهى إلى أن يكون أشد مضاضة . وانحنى على خشب القيدوم وأنشأ يحرّك اصابع يده اليسرى .

وكانت الشمس لاهبة الآن على الرغم من ان النسيم اخذ يهبّ في رفق .

وقال الشيخ :

— « من الافضل ان أجدد أطعام ذلك الخيط القصير الذي في مؤخر القارب . وإذا اعتزمت السمكة أن تمكث ليلةً أخرى فسوف أكون مضطراً إلى ان آكل مرة ثانية . وإلى هذا فيجب أن لا أنسى ان زجاجة الماء لم يبق فيها غير ثمالة ضئيلة . ولست أظن أن في مستطاعي أن أفوز ههنا بشيء غير بعض الدلافين . ولكن إذا أكلت لحمه طازجاً جداً فقد لا يصعب عليّ أن أسيغه . وكم أتمنى لو ان سمكة طائرة حطّت في القاربِ هذه الليلة . ولكن ليس عندي أي ضوء حتى أجتذبها . إن السمك الطائر شهي جداً إذا أُكل نيئاً. ولن أكون مضطراً إلى تقطيعه . يجب أن ادّخر كامل قوّتي الآن . يا إلهي ، أنا ما كنت أعلم أنها كبيرة إلى هذا الحد ! »

ثم أردف :

– « ومع ذلك فسوف أصرعها ، بعظمتها كلها ، ومجدها كله ! »

وفكّر : على الرغم من ان هذا ليس بعدل . ولكني اريد أن أريها أيّ شيء يستطيع أن يعمله الانسان وأيّ مشقّة يستطيع أن يحتمل .

وقال :

– « لقد قلت للغلام إني عجوز غريب . وها قد حانت الساعة التي يتعيّن عليّ أن أثبت فيها صدق قولي . »

لكأن إثباته ذلك ألفَ مرة من قبل لا يعني شيئاً بالنسبة اليه . وها هو ذا يقيم الدليل على صدق قالتِه كرةً أخرى . كانت كل مغامرة من مغامراته جديدة بالكلية ، وما كان ليفكّر يوماً بالماضي ، فيما هو منهمك في عمله .

وبينه وبين نفسه قال : ليتها تنام ، وعندئذ أستطيع أنا أن أنام وأرى الأُسود في الحلم . لمَ كانت الأُسود هي الشيء الرئيسي الذي بقي له ؟ وهنا قال لنفسه : لا تفكّر ، أيها الرجل العجوز . استرح الآن على الخشب ، ولا تفكّر بشيء . إن السمكة تعمل ناشطة . فاعمل أنت أقل ما تستطيع .

وتقضّت الظهيرة ، والقارب لا يزال يتقدم في اناة واطراد . ولكن النسيم المشرقي أخذ يسهم ، الآن ، في دفع القارب ، وهكذا حُمل الشيخ ، في رفق ، على متن الأمواج . وغدا الألم الذي أثاره الحبل في ظهره أخف وطأً وأدنى إلى الاحتمال .

وعند الاصيل عاد الخيط يرتفع كرةً أخرى . ولكن السمكة واصلت مسيرهـا على عمق أقل بعض الشيء . وكانت الشمس تلقي أشعتهـا فوق كتف الشيخ وذراعـه اليسرى وظهره ، ومن هنـا استنتج ان السمكـة قـد اتجهت نحو الشمال الشرقي .

أما وقد رأى السمكة مرةً فقد صار في وسعه ان يتمثل السيف سابحاً في الماء بزعانفه الحمراء الداكنة ، المنشورة كالأجنحـة ، وبذيله الافقي الضخم يشق حجاب الظلماء . وقـال الشيـخ بينه وبين نفسه : ليت شعري إلى أي مـدى يستطيع ان يبصر في تلك الاعماق ؟ إن عينه هائلـة ، وفي استطاعـة القرش أن يرى سبيله في الظلام بعين أصغر بكثير . ولقـد أتى عليّ حينٌ من الدهر كنت ابصر خلاله جيداً في الظلام . لست أعني في الظلام المطلق . ولكن كما ترى الهرة تقريباً .

وكانت الشمس وتحريكه أصابع يده اليسرى تحريكاً موصولاً قد أذهبا عنها التشنج نهائياً . وهكذا صار في ميسوره أن يعهد اليها في نصيب من العمل أكبر . ثم انـه رفع عضلات ظهره ليزيح الوِزر الذي أنقضه ، بعض الشيء .

وقال في صوت عال :

— « إذا كنتِ لمّا تتعبي بعد ، أيتهـا السمكة ، فلا بدّ ان تكوني عجيبة جداً ! »

وكان هو قد استشعر انه متعب كثيراً . وكان يعلم ان الليل قد أمسى قريباً ، فحاول ان يفكر في أشياء أخرى . لقد فكّر في مباريـات البيسبول الكبرى ، وفي المباراة الجاريـة بين يانكيي

نيويورك وأعمار ديترويت .

وقال في ذات نفسه : ها قد انقضى يوم ثانٍ لم اعرف فيه نتائج اللعب . ولكن يجب أن أكون قوي الايمان ، وان أكون جديراً بـ « دي ماغيو » العظيم الذي يعمل كل شيء على الوجه الاكمل برغــم الالم الذي يورثه إياه نتوء العظم في عقبه . وسأل نفسه : ولكن ما بروز العظم ؟ نحن لم نُصَب بــه . أممكن أن يكون مؤلمــاً كدخول شوكة ديك في عقب امرىء من الناس ؟ أنا لا أظن ان في طاقتي ان اصــاب بذلك أو بفقدان احدى عيني أو كلتيهما ثم أواصل القتال كما تفعل الديكة المحاربة . ان الرجل ليس شيئاً كبيراً إذا قيس بالطيور الضخمة، والحيوانات المفترسة . ومع ذلك فلو كان لي ان اختار لمــا اخترت أن أكون غير هذا السيف السابح هناك في اعمــاق البحر المظلمة .

وقال في صوت مرتفع :

– « إلا إذا أقبلت الاقراش . لأنه إذا أقبلت الاقراش فعندئذ يرحمه ويرحمني الله ! »

وفكّر : هــل تحسب ان دي ماغيو العظيم يستطيع ان يمكث مع احدى السمكات الكبار طوال المدة التي سأمكثها مع هذا السيف ؟ أنا واثق من انه خليق بأن يمكث هذه المدة كلها وزيادة ما دام نضر العود قويــاً . وإلى ذلك ، فقــد كان أبوه صياداً . ولكن هل سيؤلمه نتوء العظم في عقبه كثيراً ؟

وقال في صوت مرتفع :

– « لست أدري . أنا لم أصب بنتوء العظم قط . »

وفيما الشمس تجنح إلى الغروب تذكّر ، لكي يعزز ثقته بنفسه ، يوم لعب في إحدى حانات الدار البيضاء لعبة « اليد الحديدية » مع زنجي عظيم مثل « سيانفوغوس » كان أقوى رجال المرفأ وأشدّهم بأساً . وكانا قد سلخا يوماً وليلة ، ومرفقاهما فوق خط رُسم بالطباشير على الطاولة ، وساعِداهما منتصبان ، ويداهما مشتبكتان في إحكام . وكان كلّ منهما يبذل غاية جهده لكي يلوي يد الآخر ويكرهها على أن تمسّ الطاولة . وراجت سوق المراهنة ، وطفق الناس يدخلون الغرفة ويغادورنها على ضوء مصابيح الكيروسين ، وكان هو قد رنا إلى ذراع الزنجي ، ويده ووجهه . وتناوب المحكمون على مراقبتها ، مرة كل اربع ساعات ، بعد الساعات الثماني الأولى ، لكي يكون في ميسورهم أن ينالوا حظهم من النوم . وتفجّر الدم من تحت أظافر يده وأظافر يد الزنجي . ونظر كل منهما في عيني الآخر ، وإلى يديه وساعديه . وتدفق المتراهنون إلى الغرفة غادين رائحين ، وقعدوا على كراسي عالية، مستندة إلى الجدران ، وانشأوا يراقبون اللعبة . وكانت الجدران مدهونة بلون أزرق زاه ، وكانت خشبية ، وكانت المصابيح تلقي ظلالها عليها . كانّ ظل الزنجي هائلاً ، وكان يتمايل على الجدار كلما عبثت النسائم بضوء المصابيح .

وطوال الليل ، تأرجح النصر ذات اليمين وذات الشمال . وقدّم القوم شيئاً من خمر الـ « الروم » الى الزنجي ، وأشعلوا له السجائر . ثم ان الزنجي أفرغ ، بعد تناوله الشراب ،

جهداً هائلاً فوفّق مرةً إلى ان يلوي يد الشيخ – الذي لم يكن شيخاً آنذاك ، ولكنْ سانتياغو البطل – El Campeon – نحواً من ثلاثة إنشات . بيد ان الشيخ ما لبث أن أعاد يده إلى الارتفاع عينه تماماً . وفي تلك اللحظة عمرت الثقة فؤاده بأنه لا بدّ غالبٌ الزنجي . وعند بزوغ الفجر ، ساعةَ أصرّ المتراهنون على أن يُعتبر الفريقان متساويين ، وهز المحكمون رؤوسهم ، أفرغ الشيخ كامل قواه ، فجأةً ، وأكره يد الزنجي على أن تنثني شيئاً بعد شيء حتى مسّت الخشب آخر الأمر . لقد استُهلت المباراة صباح يوم من أيام الاحد ، ثم لم تنتهِ إلاّ صباح يوم الاثنين . وكان كثير من المتراهنين قد طالبوا بإعلان التكافؤ لاضطرارهم إلى الذهاب إلى المرفأ حيث ينقلون أكياس السكّر او إلى « شركة الفحم الحجري الهافانية » . ولولا ذلك لكان كل امرىء منهم خليقاً بأن يؤثر استمرار المباراة حتى النهاية . ولكنه أنهاها ، على أية حال ، وقبل أن يمضي أحد من الجماعة إلى عمله .

وطوال فترة غير يسيرة تقضّت على هذا الحادث ، خلع القوم عليه لقب « البطل » . وفي الربيع أجريت مباراة الاخذ بالثأر . ولكن سوق المراهنة لم تَرُجْ ، وكسب الشيخ الجولة في كثير من اليسر بعد أن وُفّق إلى تحطيم معنوية الزنجي في المباراة الأولى . من ذلك الحين خاض بضع مباريات ، ثم كفّ عن ذلك مرة واحدة . لقد قرر ان في وسعه أن يهزم أي امرىء هزيمة شنعاء لو شاء ، ولكن ذلك خليق به أن يؤذي يده اليمنى ويضعف من فعاليتها في الصيد .

ولقد حاول أن يخوض بضع مباريات تدريبية بيده اليسرى. ولكن يده اليسرى كانت خؤوناً أبداً. كانت تأبى الاذعان لأوامره، وما كان ليثق بها بحال.

وفكّر قائلاً: سوف تمحّصها الشمس جيداً، الآن. وينبغي أن لا يعاودها التشنج كرة أخرى، إلا إذا أمسى الجوّ قارساً جداً أثناء الليل. ألا ليت شعري، ما الذي ستحمله إليّ هذه الليلة؟

ومرّت فوق رأسه إحدى الطائرات، وكانت في طريقها إلى ميامي. وأوقع ظلها الذعر في قلوب السمكات الطائرة.

وقال:

- « لا بدّ ان تكون ثمة دلافين مع هذه السمكات الطائرة كلها. » وجذب الخيط قليلاً ليرى ما إذا كان يستطيع أن يكسب مقداراً منه. ولكنه لم يوفق إلى ذلك، فكفّ عن محاولته عندما أدرك، من قسوة الخيط وذبذباته، انه على وشك أن ينقطع. وتقدم القارب على مهل. وراقب الشيخ الطائرة حتى غابت عن البصر.

وبينه وبين نفسه قال: يجب أن يكون امتطاء الطائرة شيئاً غريباً جداً: ويا ليت شعري كيف يبدو البحر من ذلك العلو الشاهق؟ لا ريب في انهم يستطيعون أن يروا الاسماك جيداً إذا لم يحلّقوا كثيراً في السماء. ولكم أحب لو أطير، في تؤدة، على ارتفاع مئتي قامة وأرى الاسماك من علُ. ففي زوارق صيد السلاحف كنت أقف فوق عوارض السارية، وحتى على ذلك الارتفاع كان في مكنتي أن أرى كثيراً. لقد بدت الدلافين من هناك أشد خضرة، وكان في مستطاعك ان ترى

الجمهرة كلها وهي تسبح . لمَ كانت لجميع أسماك التيار المظلم الخفية ظهور ارجوانية ؟ ولم كانت لها في معظم الاحوال خطوط أو نقطة أرجوانية ؟ إن الدلفين يبدو أخضر لأنه ذهبي من غير شك . ولكن ما ان يلتمس طعامه بعد ان يستبدّ به الجوع حتى تبرز الخطوط الأرجوانية على جنباته مثل أسياف البحر . ترى ، ما الذي يُطلع هذه الخطوط ؟ الغضب أم السرعة البالغة ؟

وقبيل هبوط الليل فيما كانا يجوزان جزيرة كبيرة من عشب سارغاس المرتفع المتموج وكأنّ الاوقيانوس كان يغازل شيئاً ما تحت غطاء أصفر ، ابتلع احد الدلافين شص خيطه الخلفي القصير . ولقد رآه ، أول ما رآه ، حين وثب في الهواء . كان لونه ذهبياً حقاً ، تحت أشعة الشمس المحتضرة ، وكان ينحني ويخبط بذنبه خبطاً ضارياً . ووثب مرة ومرة في بهلوانية ذعره . وجثم الشيخ ، ممسكاً بالحبل الكبير بيده اليمنى وذراعه، وارتد إلى مؤخر القارب . وبيده اليسرى جذب الدلفين واطئاً ما يكسبه من الخيط بقدمه الحافية . حتى إذا انتهت السمكة إلى مؤخر القارب مذعورة واثبة متخبطة في يأس ، انحنى الرجل العجوز ورفع السمكة الذهبية الصقيلة ، بنقطها الارجوانية ، إلى ما فوق مؤخر القارب . كانت تفتح فمها وتغلقه ، في تشنج ، على الشص . وكان جسدها الطويل المسطح يضرب ألواح القارب في حنق وعنف . ثم إن الشيخ أهوى بالهراوة على رأسها الذهبي المتوهج ، فارتعدت ثم سكنت سكون الموت .

وانتزع الشيخ الشص من فم السمكة ، وطعّم الخيط

بسمكة سردين جديدة ، وألقى بـه في اليم . ثم اتخذ سبيله ، وئيداً وئيداً ، إلى مقدّم القـارب ، وغسل يده اليسرى ومسحها ببعض بنطلونه . ثم نقل الحبل الثقيل من يده اليمنى إلى يده اليسرى ، وغسل يده اليمنى في البحر ، فيما كـان يراقب الشمس تغيب في الاوقيانوس ، وينظر إلى انحراف الحبل الكبير .

وقال :

— « إنها لم تتغير على الاطلاق . »

ولكنه حين استشعر جريان الماء عبر يده أدرك ان حركـة القارب قد تباطأت على نحو ملحوظ .

وقال :

— « تحدثني نفسي بأن أثبت المجذافين معـاً عبر مؤخر القارب ، وبذلك أخفّف من سرعة السمكة أثناء الليل . إنهـا مستعدة لقضاء سهرة طويلة . وكذلك أنا . »

وفكّر : من الخير أن انتزع أحشاء الدلفين بعد قليـل لكي يُحفظ الدم في لحمه . سوف أنتزعها عما قليل ، حـين أثبّت المجذافين معاً تعويقاً للحركة . ويخيّل إليّ ان مـن الافضل أن أدع السمكة وشأنها الآن فلا ازعجها كثيراً في ساعة الغروب هذه . إن ساعة الغروب توهن عزائم السمكات جميعاً .

وترك يده تجف في الهواء ، ثم تلقّف الحبل بها ، وأراح جسده المكدود ما وسعه ذلك ، منحنياً على الخشب . وهكذا حمّل القارب مثل مـا يحمله هو من ثقل الحبل المشدود ، أو أكثر .

وقال في ذات نفسه : لقد بدأت أتقن الصناعة – أو هذا الجزء منها على أية حال . ويجب أن لا أنسى ، فوق ذلك ، انها لم تأكل شيئاً منذ ان وقعت في الشرك ، وانها ضخمة جداً، ومحتاجة إلى مقدار كبير من الغذاء . أما أنا فقد أكلت التنّ بكامله . وغداً سوف آكل الدلفين . ولعله يتعيّن عليّ أن آكل جزءاً منه وأنا انتزع امعاءه وأنظفه . ولسوف يكون مضغه أصعب من مضغ لحم التنّ . ولكن ليس ثمة ما هو يسير ، الآن .

وسألها في صوت عال :

– « كيف أنتِ ، أيتها السمكة ؟ أنا استشعر النشاط . ويدي اليسرى أحسن من ذي قبل . وعندي من الطعام ما يكفيني هذه الليلة ونهار غد . إسحبي القارب ، أيتها السمكة ، إسحبي ! »

وفي الحقّ انه لم يكن في حال حسنة كما زعم ، لأن الألم الذي أنزله الخيط الغليظ بظهره كاد يتعدى تخوم الألم لينتهي إلى خدر كان موضع ارتيابه . وقال في ذات نفسه : ولكني عانيتُ ما هو أسوأ من هذا . إن يدي اليمنى مجروحة جرحاً بسيطاً ، ولقد تحررت يدي الاخرى من التشنج . أما رجلاي فلم يصبهما أذىً ما . وفوق هذا كله ، فقد تمّ لي التفوق على السمكة – بعدما ادخرته من غذاء – في ميدان التجلد والاحتمال .

وجلبب الظلام الكون . ففي ايلول يهبط الليل بعد غروب الشمس مباشرة . واستند الشيخ إلى القيدوم البالي ، واستراح ما وسعه أن يستريح . وبرزت طلائع النجوم .

ولم يكن يعرف اسم « رِجل الجبار » * ولكنه رآه ، وأدرك ان جميع أصدقائه الأبعدين سوف ينتثرون وشيكاً في أجواز السماء .

وقال في صوت عال :

— « والسمكة صديقتي أيضاً. أنا لم أر ولم أسمع بسمكة مثل هذه من قبل . ولكني مضطر إلى ان أقتلها . كم انا سعيد لعدم اضطرارنا إلى ان نقتل النجوم ! »

وبينه وبين نفسه قال : تخيلْ لو كان على الانسان أن ينطلق كل يوم لقتال القمر ! لا شك في ان القمر خليق في هذه الحال بأن يطلق ساقيه للريح . ولكن تخيل لو تعيّن على الانسان ان ينطلق كل يوم لقتال الشمس ؟ وفكّر : نحن مخلوقات محظوظة من غير ريب .

ثم أخذه الحزن على السمكة الكبيرة حين خطر له ان ليس عندها ما تأكله . ولكن تصميمه على قتلها لم يضعف نتيجة لحزنه ذاك على الاطلاق . وفكّر : كم رجلاً سوف يغتذي من لحمها ؟ ولكن هل هم جديرون بأن يأكلوا لحمها ؟ لا ، طبعاً لا . ليس ثمة من هو جدير بأن يأكل هذه السمكة بعد الذي تكشفت عنه من شجاعة وجلال .

وقال في ذات نفسه : أنا لا أفهم هذه الاشياء . ولكن من حسن الطالع أننا غير مضطرين إلى ان نطارد الشمس أو القمر أو النجوم . حَسْبُنا أن نعيش على البحر وأن نطارد اخوتنا الحقيقيين .

---

* Rigel أو Beta Orionis نجم ضارب الى الزرقة في برج أوريون (او الجبار) . (المعرب)

وفكّر : والآن يتعيّن عليّ ان انظر في مسألة تعويق حركة القارب . إن لهــا مخاطرها وحسناتها . ذلك اني إذا ثبّتُ المجذافين فقد أخسر جزءاً كبيراً من الخيط إلى درجة تعرّض السمكة للضياع ، إذا ما خطر لها أن تفرغ قوّتها كلها في الجذب وفقدَ القارب خفته . صحيــح ان خفــة القارب تطيل آلامي وآلامهــا ، ولكنها مناط سلامتي لأن السمكة لمّــا تنطلقْ بعدُ بأقصى سرعتها . وأيّــاً ما كان فينبغي أن أنتزع أحشاء الدلفين حتى لا يفسد ، وأن آكل شيئاً منه لكي أظــل قوياً .

والآن سأستريــح ساعة اخرى ثم أتأكد من ان السمكة هادئة مطردة الخطى ، قبل أن أنقلب إلى مؤخر القارب لأقوم بعملي وأحزم أمري . وفي أثنــاء ذلك يكون في استطاعتي أن أراقب مسلكها وما قد يطرأ عليها من تطورات . إن فكرة المجذافين هذه بارعة . ولكنا انتهينا الآن إلى مرحلة تقتضي كثيراً مــن الانتباه والحذر ! فهذا السيف لا يزال سمكة سوية لهـا ما لسائر الاسماك الكبيرة من قوّة وجبروت . ولقد رأيت الشص في زاوية فمه وقد أطبق فمه اطباقاً محكماً . ولكن بلاء الشص ليس شيئاً . البلاء الحقيقي هو الجوع ، وكونه يقاتل ضد شيء لا يفهمه . فاسترح الآن ، أيها الرجــل العجوز ، ودعه يعمل حتى يحين دورك في العمل .

واستراح ساعتين ــ أو ذلك ما بدا له . وإذ لم يطلع القمر إلا في ساعة متأخرة فقد عــدم الوسيلة لمعرفة الوقت . ثم ان الراحة التي نعم بهــا لم تكن في الواقع غير راحة نسبية .

كان لا يزال يحمل ثقل السمكة على منكبيه ، ولكنه وضع يده اليسرى على حافة القيدوم ، مسنداً إلى القارب نفسه جزءاً متعاظماً من مهمة المقاومة .

وفكّر : كم كـان الامر خليقاً بأن يكون اسهل لو استطعت أن أشدّ الخيط إلى شيء ما . ولكن السمكة قمينة ، عندئذ ، بأن تقطعه بنترة صغيرة واحدة . يجب أن أتخـذ من جسدي وسادة تخفّف من وطـأة الضغط ، وان أكون مستعداً ، في كل لحظة ، لأن أرخي الخيط للسمكة ، بيديّ الاثنتين .

وقال بصوت مرتفع :

— « ولكنك لم تنم بعد ، أيها الرجل العجوز . لقد سلختَ نصف نهار وليلةً بكاملها وها أنت تضيف إلى ذلك نهاراً جديداً وعيناك لم تعرفا الغمض لحظةً واحـدة ! يجب أن تستنبط وسيلة تمكنك من أن تنام بعض الشيء إذا ظل السيف يجرّك مثل هذا الجر الهادىء . لأنك ان لم تنم فقد يزايل الصفاء رأسك . »

وفكّر : إن رأسي صافٍ . بل انه صافٍ أكثر مما ينبغي . أنا في مثل صفاء النجوم التي هيَ اخوتي . ومعَ ذلك فيجب أن أنام . إن النجوم تنام . والقمر والشمس ينامان . وحتّى المحيط ينام أحياناً في بعض الايام التي لا تيار فيها والتي يرين فيها الهدوء على وجه الماء .

وقال في ذات نفسه : ولكن لا تنسَ ان عليك ان تنام . أجبر نفسك على ذلك وابتدع وسيلة صغيرة مضمونة تقي الخيوط شر المفاجآت . والآن ، إرتدّ إلى الوراء وأعدّ الدلفين . إنـه

ليس من الحكمة أن تثبّت القارب بالمجذافين إذا كنت مضطراً إلى الرقاد .

وخاطب نفسه قائلاً : في استطاعتي ان استغني عن النوم . ولكن ذلك صنيعٌ بالغ الخطورة .

وشرع ينكفىء إلى مؤخر القارب على يديه وركبتيه ، محاذراً ان يجذب الخيط بأي حال . وقال بينه وبين نفسه : جائز ان يكون هذا السيف هو نفسه نصف نائم . ولكن هذا ليس من شأني . أنا اريد ان يحلّ التعب بساحته . يجب ان يجذب الخيط حتى يموت !

وإذ انتهى إلى مؤخر القارب ، استدار ممسكاً الحبل بيده اليسرى ، على حين استل مديته من غمدها بيده اليمنى . كانت النجوم متألقة ، وكان في ميسوره أن يرى الدلفين في وضوح . وغيّب شفرة المدية في رأسه وجذبه نحوه . ثم انه وضع احدى قدميه على الدلفين ، وشقّه في خفة من أدنى بطنه إلى أعلى فكّه الأسفل . ثم وضع مديته جانباً وراح ينتزع أحشاء الدلفين بيده اليمنى ، مفرغاً جوفه وخياشيمه . وكان الكرش ثقيلاً زلقاً بين يديه . وفتحه فاذا فيه سمكتان طائرتان . كانتا طازجتين مكتنزتين . فوضع احداهما إلى جانب الاخرى وقذف بالنفاية في الماء ، فغاصت مخلفة وراءها خطاً فوسفوري التوهج . وكان الدلفين بارداً . وإذ انطرح هناك تحت أشعة النجوم ، فقد بدا الآن أجذم شديد الشحوب . وسلخ الشيخ الجلد عن جانب من الدلفين واطئاً رأسه بقدمه اليمنى . ثم قلّبه وسلخ الجلد عن الجانب الآخر . وانتزع لحمه من الرأس حتى الذنب .

ثم انه طرح الهيكل في عرض البحر ، ونظر ليرى ما إذا كان ثمة درادير في الماء. بيد انه لم يجد شيئاً غير انحدار متباطىء مضيء . فاستدار ووضع السمكتين الطـائرتين في داخل قدتي اللحم اللتين سلخهما من الدلفين ، وأغمد مديتـه واتخذ سبيله في بطء إلى مقدّم القارب . كان ظهره محدودباً تحت ثقل الخيط ، وكان يحمل لحم الدلفين بيده اليمنى .

وحين بلغ مقدّم القـارب نشر قدتي اللحم على الخشب ، ووضع السمكتين الطائرتين إلى جـانبهما ، ثم ركزّ الحبل فوق ناحية أخرى من كتفيه ، ممسكاً به باليد اليسرى ، مستنداً إلى حافة القـارب . وبعد ذلك انحنى ليغسل السمكتين الطائرتين بالماء ، وليقدّر سرعة المياه وهي تندفع عبر يده . وكانت يده تتألق بضياء فوسفوري بسبب من انتزاعه جلد الدلفين بها ، فراح يراقب تدفّق الماء حواليها .

كان البحر أكثر هدوءاً . وحين حكّ راحـة يده بألواح القارب تناثرت منهـا ذرات من الفوسفور وارتدّت في تؤدة نحو مؤخر القارب .

وقال الرجل العجوز :

— « هي إمـا متعبَة أو مخلدة إلى السكينة . والآن دعني أمضي في التهـام هذا الدلفين ، وأنعم بشيء من الراحـة وقليل من النوم . »

وتحت النجوم ، وفي غمرة من الليل الآخـذ بردُهُ في الاشتداد شيئاً بعد شيء ، أكل نصف قـدة من لحم الدلفين وإحدى السمكتين الطائرتين بعد أن اطّرح أحشاءها واقتطع رأسها .

وقال :

– « ما أشهى الدلفين حين يؤكل مطبوخاً ! وما أتفهه من سمكة حين يكون نيئاً ! أنا لن انطلق في قارب ، بعد اليوم ، من غير أن اصطحب شيئاً من الملح او الليمون الحامض . »

وقال في ذات نفسه : لو كان في رأسي دماغ لسفحتُ الماء ، طول النهار ، على مقدّم القارب . حتى اذا جفّ كان في ميسوري ان افوز بشيء من الملح . ولكني ما كنت خليقاً ، في مثل هذه الحال ، بأن أوقع الدلفين في الشرك إلا مع غروب الشمس . ومهما يكن ، فلا ريب في ان ذلك دليل على اهمالي . ولكني مضغت اللحم كله جيداً ولم استشعر شيئاً من الغثيان .

وتلبدت السحب في ناحية المشرق، حاجبةً النجوم التي يعرفها الشيخ واحداً إثر واحد . لقد بدا وكأنه يمضي في وادٍ من الغيوم سحيق . وسكنت الريح .

وقال الشيخ :

– « سوف تسوء الأحوال الجوية بعد ثلاثة ايام او اربعة ، ولكن ليس الليلة ولا غداً . فما عليك ، ايها الرجل العجوز ، إلا أن تستعد لشيء من الرقاد ما دامت السمكة هادئة مطردة السير . »

وأطبق يده اليمنى على الخيط إطباقاً محكماً . وضغط بفخذه على تلك اليد ، فيما كان ينحني بثقله كله على خشب القيدوم . ثم خفض الحبل فوق كتفيه خفضاً جزئياً وأوثقه تحت يده اليسرى .

وفكر قائلاً : في استطاعة يدي اليمنى أن تقاوم في بسالة ما دام الخيط موثقاً على هذا النحو . ولو قد تراخت أثناء النوم فعندئذ توقظني يدي اليسرى حالما يولي الخيط فراراً . ولا ريب في ان هذا العبء سوف يكون ثقيلاً على يدي اليمنى . ولكن ، لا بأس ، فقد شهدتْ في ايامها ضروباً من البلاء . وحتى لو نمت نصف ساعة أو عشرين دقيقة اذن لأفادني ذلك بعض الشيء . وانحنى الى امام لكي يقاوم بجسده كله ثِقل الخيط . واذ تركزت قوته برمتها في يده اليمنى استسلم للرقاد .

ولم يرَ الأُسود في ما يراه النائم هذه المرة . لقد رأى رتلاً ضخماً من خنازير البحر يبلغ طوله ثمانية أميال أو عشرة . وكان ذلك في موسم التناسل ، فهي تثب عالياً في الهواء ثم ترتد الى الحُفر نفسها التي احدثتها في الماء عند انطلاقها منه .

ثم رأى في المنام انه مضطجع في فراشه في القرية . وهبّت ريح شمالية ، وعصف به البرد القارس . وكانت ذراعه اليمنى نائمة ، لأن رأسه استقر فوقها بدلاً من أن يستقر فوق وسادة ما .

وبعد ذلك انشأ يحلم بالشاطىء الاصفر الطويل ، فرأى طليعة الأسود يهبط نحو البحر في غبشة الغسق ، يتبعه سائرها على الاثر . وأراح الشيخ ذقنه على خشب القيدوم وطفق يتأمل . لقد أقامت سفينته توازنها بأن ألقت مراسيها . وهبّت نسائم المساء من الشاطىء . ترى ، هل ستفد أسود اخرى ؟ وغمرت الشيخَ السعادة .

وكان القمر قد طلع منذ فترة غير قصيرة ، ولكن الشيخ استرسل في رقاده . وواصلت السمكة جذبها في اطراد ، وشق الزورق طريقه في نفق من الغيوم .

وفجأة انتفضت يده اليمنى فلطمت وجهه . كان الحبل قد ألهب يده اليمنى إلهاباً ، وكانت يده اليسرى خدرة لا حسّ فيها . وكبح الخيطَ بيده اليمنى ، أقصى ما يستطيع الكبح ، ولكن الخيط اندفع هارباً . وأخيراً عثرت يده اليسرى على الخيط وارتدّ الى الوراء ضاغطاً على الخيط بظهره ، فاذا بالخيط يحرق ظهره ويده اليسرى ، وإذا بيده اليسرى تنهض الآن بالعبء كله فيحتزها الحبل ويدميها . والتفت الشيخ ليلقي نظرة على لفائف الخيوط ، فألفاها تكرّ على رسلها . وفي تلك اللحظة وثب السيف محدثاً انفجاراً هائلاً في مياه المحيط ثم هوى في ثقل . وما هي الا فترة حتى عاود الوثوب مرةً ومرةً ، وانطلق الزورق في سرعة برغم طول الحبل المرخى له ، وبرغم ان الشيخ أنشأ يجذب الخيط ويجذبه في ضراوة ، حتى نقطة الانقصاف . وكان من نتائج هذا الصراع أن طُرح الشيخ فوق مقدّم القارب ، وارتطم أنفه بلحم الدلفين ، فبات لا يطيق حراكاً .

وفكّر قائلاً : ذلك ما كنا ننتظره . وإذن فلا محل للشكوى .

وبينه وبين نفسه قال : إحمله على دفع ثمن هذه الخيوط كلها . إحمله على دفع ثمنها !

ولم يكن في ميسوره أن يرى السمكة وهي تثب . بيد انه كان يسمع تفجّر المحيط عند انطلاقها وطشيش الماء عند

سقوطها . وكان الخيط يكرّ في سرعة فيحتز يديه ويلهبهما ، ولكنه ما كان يتوقع شيئاً غير ذلك . وحاول ان يصطنع الاجزاء الصفيقة من يديه ، محاذراً أن يمس الخيط باطن كفيه او ينزلق بين اصابعه .

وقال في ذات نفسه : لو كان الغلام هنا اذن لبلّ الخيوط. أجل لو كان الغلام هنا ! لو كان الغلام هنا !

وكرّ الخيط ، وكرّ ، وكرّ ، ولكنه شرع يتباطأ الآن . وأكره الشيخ السمكة على أن تدفع غالياً ثمن كل انش منه . ورفع رأسه عن مقدّم القارب ، وأزال عن وجهه لحم الدلفين الذي سحقه خده ، ثم نهض على ركبتيه واستوى قائماً في اناة. كان يرخي الخيط على نحو موصول ولكنه آخذ في التباطؤ شيئاً بعد شيء . وانكفأ الى حيث يستطيع ان يلمس بقدميه لفائف الخيوط التي عجز عن رؤيتها . كان لا يزال ثمة مقدار وافر من الخيوط ، وكان على السمكة الآن ان تحتمل ثقل هذه الحبال الاضافية .

وقال في ذات نفسه : أجل . لقد وثب السيف اكثر من اثنتي عشرة مرة ، حتى الآن ، وملأ الجيوب المرصوفة على ظهره بالهواء فليس في استطاعته أن يغوص ليموت في أعماق البحر حيث أعجز عن اخراجه . انه سوف يبدأ وشيكاً في التحويم ، وعندئذ يجيء دوري في سوقه الى المكان الذي أشاء. ترى ما الذي أثاره على هذا النحو الفجائي ؟ أيكون الجوع قد أوقع اليأس في فؤاده ، أم لعل شيئاً ما قد روّعه في الظلام ؟ ومن يدري ، لعل الخوف ساوره فُجاءة . ولكنه كان من قبل هادئاً مكيناً ، ولقد بدا بالغ الجراءة عظيم الثقة بالنفس . ذلك

أمر عجيب .

وقال :

– « من الخير ان تكون انت ، ايها الرجل العجوز، جريئاً واثقاً من نفسك . لقد أمسكتَ بزمامه من جديد ولكنك لا تستطيع أن تستردّ ما فقدته من خيوط . وعلى أية حال ، فلا ريب في انه سوف يحوّم عما قليل . »

وأخذ الشيخ بقياد السمكة ، بكل من يده اليسرى ومنكبيه . ثم انحنى وغرف شيئاً من الماء بيده اليمنى لكي يزيل لحم الدلفين المسحوق عن وجهه . لقد كان يخشى أن تصيبه رائحة ذلك اللحم بالغثيان ، وعندئذ يقيء ويفقد قوته . حتى اذا نظف وجهه وضع يده في الماء المالح ، وتركها هناك برهة ، وانشأ يراقب طلائع الضوء الوافد بين يدي الشروق . وفكر قائلاً : انه يتجه الآن نحو الشرق تقريباً . وهذا يعني انه متعب وانه يجري مع التيار . ولن ينقضي طويل وقت حتى يشرع في الدوران . وعندئذ يبدأ عملنا الحقيقي !

وبعد ان قدّر أن يده اليمنى لبثت في الماء مدة كافية اخرجها ونظر اليها .

وقال :

– « إنها في حال لا بأس بها . وليس الألم مما يبالي به الرجال . »

وأمسك بالخيط في احتراس كي لا ينزلق في أي من جراحاته الجديدة ، وأزاح حمله بحيث يتمكن من أن يضع يده اليسرى في الماء ، من جانب القارب الآخر .

وقال مخاطباً يده اليسرى :

– « أنتِ لم تحتملي هذا البلاء كله من اجل شيء لا غَناء فيه . ولكن لقد غبرتُ لحظة تفقدتكِ فيها فلم أجدكِ ! »

وفكر : لمَ لمْ أولد بيدين قويتين ؟ لعل الذنب ذنبي لأني لم امرّن تلك اليد الواهنة تمريناً كافياً . ولكن الله يشهد ان مجالات التعلّم كانت رحبة امامها . وعلى اية حال ، فلقد أبلت بلاء حسناً ، هذه الليلة. وهي لم يصبها التشنج إلا مرة واحدة. واذا ما تشنجت مرة اخرى فلسوف ادع الخيط يحتزها من غير ان ابدي حراكاً .

وحين خطر له ذلك أدرك انه لم يعد صافيَ الرأس ، وأن عليه أن يمضغ مزيداً من لحم الدلفين . ولكني لا استطيع – كذلك قال في ذات نفسه . فلأن تستشعر وكأن الدوار يعصف برأسك خير من أن تنفد قوتك بالغثيان . وأنا أدري اني لن اقدر على ابتلاع هذا اللحم بعد ان امتزج به وجهي . من اجل ذلك سأحتفظ به للطوارىء ، حتى يصيبه الفساد . ولكن لقد فاتني القطار الآن ، فأنا لا استطيع ان اعوّض قواي من طريق الطعام . أنت أحمق – كذلك قال بينه وبين نفسه . كُلِ السمكة الطائرة الاخرى .

كانت هناك منظفةً جاهزة . فتناولها بيده اليسرى وأكلها ماضغاً العظم في احتراس ، ملتهماً كل ما فيها ؛ من الرأس إلى الذنب .

وفكر : إنها احفل بالغذاء من سائر الاسماك تقريباً . الغذاء

الذي أحتاج اليه أنا ، على الأقل . والآن ، لقـد عملتُ الذي أستطيعه . فليبدأ في دورانه ، ولنفتتح المعركة .

وأشرقت الشمس على الشيخ وعلى قاربه للمرة الثالثة عنـدما أخذ السيف في التحويم .

ولم يستطع ان يستدل من انحراف الخيط ان السمكة تحوّم . فقد كان مثل ذلك الاستدلال سابقاً لأوانه في تلك اللحظــة . كل ما أحسّ به تراخٍ طفيف في ضغط الخيط ، فأنشأ يجذبه في رفق بيده اليمنى . وتوتر الخيط ، كعهده من قبل ، ولكنه ما إن كاد يبلغ نقطة الانقصاف حتى غدا سلساً سهل القيــاد . وأزلّ الشيخ الحبلَ فوق كتفيه ورأسه ، وطفق يشدّه في تؤدة واطراد . كان يصطنع كلتا يديه ، في حركة متأرجحة ذات اليمين وذات الشمال ، محاولاً ان يحمّل جسده وقدميه أكبر قسط ممكن من مهمة الجذب . واتّبعت رجلاه الهرمتان وكتفاه الباليتان حركة يديه المتأرجحة .

وقال :

— « انها دورة ضخمة جداً . ولكنه يدور . »

وهنا أبى الخيط ان ينقاد ، فأطبق الشيخ يده عليه في إحكام حتى لقد رأى قطرات الماء تتواثب منه تحت اشعة الشمس . ثم أخذ يكرّ ، فركـع الشيــخ آسفـاً ، وتركه يغوص في الميــاه المظلمـة .

وقال :

— « هو ذا في أوج دورانه الآن . »

ثم فكّر : ينبغي أن أتشبّث بالخيـط مـا استطعت . فـلا ريب في أن الاجهـاد سوف يضيّـق نطــاق دورانــه مـرة

بعد مرة . ولعلي ان اوفق بعد ساعة الى رؤيته . يجب أن انتصر عليه الآن ، وبعد ذلك يتعيّن عليّ أن أقتله .

لكن السمكة اقامت على التحويم ، في أناة . وبعد ساعتين تندّى جسد الشيخ كله بالعرق ، ونفذ الاعياء الى عظامه . ولكن دورات السمكة تقاصرت تقاصراً كبيراً ، ومن كيفية ميَلان الخيط أدرك الشيخ انها ترتفع باطراد فيما هي تسبح .

وطوال ساعة ، تراقصت البقع السوداء أمام ناظري الشيخ . وأحرق العرق المالح عينيه ، وأحرق الجرحَ الذي فوق عينيه وعلى جبهته . ولم يجزع للبقع السود . فقد كانت ظاهرة سوية اذا نُظر اليها على ضوء الجهد العظيم الذي أنفقه في جذب الخيط . وأياً ما كان ، فقد استشعر مرتين دواراً ووشْكَ اغماء ، وذلك ما اقلقه حقاً .

وقال :

— « لم يكن في وسعي ان اخذل نفسي وأموت وأنا اصطاد سمكة مثل هذه . أما وقد وُفقت الى ان اقودها على هذا النحو البارع فساعدني ، يا الهي ، وأمدّني بالقوة على الاحتمال . اني أعد بأن أتلو صلاتيَ « أبانا » و « السلام عليك يا مريم » مئة مرة . ولكني لا استطيع ان افعل ذلك الآن ! »

وفكّر : إعتبرْ أنها تليت . سوف أتلوها في ما بعد !

وفجأة انتفض الخيط ، وكان يمسك به بيديه الاثنتين ، انتفاضةً هائلة — انتفاضةً حادة ، قاسية ، ثقيلة .

وفكّر الشيخ : ان السمكة تطعن قاعدة الصنارة برمحها . لقد كان ذلك امراً محتوماً . فليس في وسعها أن تفعل غير

ذلك . وقد يضطرها هذا الى الوثوب . ولو كان لي أن اختار، إذن لآثرتُ لو واصلتْ دورانها . انها مكرهة على الوثوب لكي تتنشق الهواء ، ولكن كل وثبة من وثباتها خليقة بأن توسع الجرح الذي أحدثه الشص في فكها . وقد ينتهي ذلك بها الى اطّراح الشص والنجاة بنفسها .

وقال :

— « لا تثبي ، أيتها السمكة ، لا تثبي ! »

وطعنت السمكة المعدن عدة مرات اخرى . وكان الشيخ يرخي الحبل للسمكة كلما هزت رأسها .

وقال في ذات نفسه : يجب ان اوقف ألمها حيث هو . أما ألمي أنا فلست أبالي به . في استطاعتي أن أسيطر على أوجاعي . أما أوجاعها ، فقد تفقدها صوابها .

وبعد برهة كفّت السمكة عن ضرب معدن الصنارة، واستأنفت الطواف ، في تؤدة . وراح الشيخ يسترجع الخيط على نحو موضول . ولكنه استشعر انه على وشك الاغماء، كرةً اخرى ، ورفع شيئاً من ماء البحر بيده اليسرى ونضح به رأسه ، ثم رفع مقداراً آخر ونضح رأسه كرة ثانية وفرك مؤخر عنقه .

وقال :

— « لست أشكو التشنج ، سوف ترتفع السمكة عما قليل ، وفي استطاعتي ان اثبت . إن من واجبك ان تثبت . فلا تتحدث عن ذلك ولو مجرد حديث . »

وانحنى مستنداً الى مقدّم الزورق ، وأزلَ الخيطَ فوق ظهره كرةً اخرى . وقال في ذات نفسه : سوف استريح الآن ريثما تتم دورتها ، ثم انهض حين ترجع ثانية وأستأنف

نشاطي .

كان كل شيء يغريه بأن يستريح عند مقدّم الزورق ويدع السمكة تتم دورتها من غير ان يسترجع شيئاً من الخيط . ولكن ما ان اظهر التوتر ان السمكة قد اتجهت نحو الزورق حتى هبّ الشيخ العجوز على قدميه ، واستأنف التأرجح والتمايل والجذب لكي يحتفظ بكل ما كسبه من الخيط .

وفكر : أنا أشد تعباً مما كنت في أيما وقت مضى .

وها هي ذي الريح التجارية تهبّ . ولكن هذه سوف تعينني على السمكة . أنا في أمسّ الحاجة الى شيء من الهواء المنعش .

– « سوف استريح حتى الجولة الثانية ريثما تقوم بدورتها . ولقد اخذ النشاط يعاودني . وما هي إلا دورتان أو ثلاث حتى أظهر عليها . »

وكانت قبعته المصنوعة من قش قد دُفعت الى مؤخر رأسه دفعاً بعيداً . واستهلكت السمكة دورةً جديدة . وتوتر الخيط كرةً اخرى فخرّ الشيخ على مقدّم القارب .

وفكر قائلاً : هذا دورِك في العمل يا عزيزتي . ولكني سوف اقضي عليكِ حين تنعطفين .

وكانت مياه البحر قد ارتفعت ارتفاعاً بالغاً . ولكنها كانت إحدى نسائم الجو الجميل . وكان هو في حاجة اليها من اجل العودة الى هافانا .

وقال :

– « سوف ادير الدفة في اتجاه الجنوب والغرب . إن

المرء لا يضلّ سبيلـه في البحر ابداً . وكوبا على كـل حال جزيرة طويلة . »

وعند الدورة الثالثـة ابصر الشيخ سمكته آخر الامر . لقـد رآها ، أول ما رآهـا ، مثل ظلّ اسود استغرق مروره تحت القارب فترة طويلة من الوقت جعل الشيخ لا يصدق انهـا على هذا الطول كله .

وقال :

— « لا . إنها لا يمكن ان تكون ضخمة الى هذا الحد . »

ولكنها كانت ضخمة الى هذا الحد . وحين اتمت دورتهـا الثالثة تلك ، وانبثقت بكاملها ممتـدةً على مسافـة ثلاثين ياردة ابصر الشيخ ذنبها خارجاً من الماء . كان أعلى من شفرة منجل كبير . وكان لونه ازرق شديد الشحوب فوق زرقة الماء الداكنة . وفجأة اختفى الذنب . وفيما كانت السمكة تسبح تحت سطح البحر مباشرة صار في استطاعة الشيخ ان يرى الى حجمها الضخم والى العصائب الارجوانية التي تطوّق جسدها. كانت زعنفتها الظهرية ملوية ، وكانت زعانفها الصدرية منشورة على مداها .

وفي تلك الـدورة استطاع الشيـخ ان يرى عين السيف ، والسُمَيكتين الرماديتـين السابحتين حوله . كانتا تلتصقان احياناً بالسيف وتنفصلان احياناً عنه . وكانتا احياناً اخرى تسبحـان في ظله آمنتـين مطمئنتين . وكان طول كـل منهما يعدو ثلاثة اقدام . وكانت سباحتهما السريعة تذكّر بحركة الانقليس المتثنّية .

كان الشيخ يتصبب عرقاً ، ولكن بسبب من شيء آخر غير الشمس . ومع كل دورة من دورات السمكة الهادئة المسالمة كان الشيخ يسترجع جزءاً من الخيط ، وقد بات على مثل اليقين من انه سوف يكون في ميسوره ان يطعنها بالحربون بعد دورتين اثنتين .

وبينه وبين نفسه قال : ولكن يجب ان استاقها الى مكان قريب – قريب جداً . وينبغي ان لا أستهدف الرأس . القلب هو الذي يجب عليّ ان أستهدفه .

وقال :

– « كن هادئاً وقوياً ، ايها الرجل العجوز ! »

وفي الدورة التالية برز ظهر السمكة من تحت الماء . ولكنه كان بعيداً عن الزورق بعداً غير يسير . وفي الدورة التي عقبتها كان لا يزال على مثل ذلك البعد ، ولكنه كان اكثر ارتفاعاً فوق سطح الماء . وايقن الشيخ بأنه اذا استرد مقداراً اضافياً من الخيط فعندئذ يوفق الى ان يقود السيف حتّى حافة الزورق .

وكان قد أعدّ الحربون منذ فترة طويلة ، وكان حبله الرقيق ملتفاً في سلة مدورة ، وقد شدّ اقصاه الى الوتر القائم في مقدّم القارب .

وفي تؤدة أتمت السمكة دورتها . كانت فاتنة حقاً ، وكان ذنبها هو وحده الذي يتحرك . وجذب الشيخ الخيط بأقصى ما يستطيع ان يجذبه لكي يزيد السمكة قرباً من الزورق . وانقلبت السمكة على جنبها ، لحظة ليس غير ، انقلاباً جزئياً . ثم انها استقامت ، واستهلت دورة جديدة .

وقال الرجل العجوز :

– « لقد حرّكتُها ! لقد حركتها اذن ! »

وأحسّ بالدوار يعصف برأسه ، ولكنه واصل جذب الخيط مفرغاً في ذلك كامل قوّته . وبينه وبين نفسه قال : لقد حرّكتُها ، ولعلي أن أوفّق هذه المرة لأن أسوقها حتّى القارب. والآن ، اسحبا أيتها اليدان ! تماسكا أيتها الرجلان ! وأنت يا رأسي ، إبقَ الى جانبي ! أنت لم تفارقني في يوم من الأيام . هذه المرة سوف أجرها حتّى الزورق .

ولكنه ما ان أخذ بجذب الخيط بأقصى ما يستطيع من قوة بادئاً ذلك قبل أن تقترب السمكة من القارب ، حتّى وفق السيف الى أن ينأى ويعرض بجانبه . ثم استقام واتّخذ سبيله في البحر .

وقال الرجل العجوز :

– « أيتها السمكة ، إنكِ سوف تموتين على أية حال . أتريدين أن أموت أنا أيضاً ؟ »

وفكّر : هذه طريقة حمقاء لا تؤدي الى شيء . وكان فمه جافاً الى درجة جعلت من المتعذر عليه أن ينطق بكلمة . ولكنه ما كان قادراً على أن يبلغ الماء . وتابع تفكيره : ينبغي أن أستاقه الى الزورق هذه المرة . أنا لا أستطيع الثبات طويلاً بعد هذا . ثم خاطب نفسه قائلاً : بل في استطاعتك أن تثبت ! في استطاعتك أن تثبت الى آخر الدهر !

وعند الدورة التالية أوشك الشيخ أن يفوز بالسمكة . ولكنها ما لبثت أن استقامت كرةً أخرى ومضت تسبح

في أناة .

وبينه وبين نفسه قال : انك تقتلني أيها السيف ، ولكن لك الحق في ذلك . فأنا لم أشهد عمري كله شيئاً أكبر منك أو أجمل ، أو أرصن ، أو أنبل ، أيها الأخ . هيا اقتلني . فلست أبالي ، بعد ، أيّنا قتلَ الآخر .

وفكّر قائلاً : يبدو أن رأسك أمسى مشوّشاً . يجب أن تحافظ على صفاء رأسك . حافظ على صفاء رأسك واعرف كيف تحتمل بلاءك كإنسان . ثم أردف : أو كسمكة !

وقال في صوت لم يسمعه الا بشق النفس :

– « إستعد صفاءك ، أيها الرأس . إستعد صفاءك ! »

ومرتين أخريين ، دار السيف من غير أن يوفق الشيخ الى طعنه .

واستشعر انه على وشك أن يخرّ فاقد الوعي ، وخاطب نفسه قائلاً : لست أدري . لست أدري . ولكني سأحاول مرة اخرى .

وحاول مرة اخرى . ولم يكد يقلب السمكة حتى أحس بالدوار يعصف برأسه . وقوّمت السمكة نفسها ونأت في تؤدة ملوّحة بذنبها الطويل في الهواء .

وأكد الشيخ : سوف احاول مرة اخرى – على الرغم من أن الوهن كان قد غلب على يديه ، ولم يعد في ميسوره ان يبصر الا في لحظات معدودات .

وأعاد الكرة ، فلم يوفّق الى مبتغاه . وأدركه حسّ الاغماء قبل ان يخاطب نفسه : وهكذا فسوف اكرر المحاولة من

جديد .

واستجمع كل ما بقي من قوّته وشجاعته وكبريائه التي تقضّت منذ زمن بعيد وحشدها في وجه السمكة المحتضرة . واقتربت هذه من القارب ، سابحة في رفق ، وقد اوشك انفها ان يمسّ ألواح القارب ، وبدأت تجوز الزورق طويلةً ، عميقة ، عريضة ، فضية ، معصّبة بالأرجوان ، لامتناهية .

وطرح الرجل العجوز الخيط ، ووطئه بقدمه ، ورفع الحربون أعلى ما يستطيع أن يرفعه ، وأغمده بكل قواه مردَفةً بالقوة الجديدة التي حشدها في تلك اللحظة — في جانب السمكة خلف زعنفة الصدر الكبرى التي علت في الهواء فكان ارتفاعها يضاهي ارتفاع صدر الشيخ . وأحس بحديد الحربون ينفذ في لحم السمكة فانحنى فوقه ودفعه الى ابعد طارحاً ثقل جسده كله عليه .

وكأن السمكة استشعرت دبيب الموت في اوصالها فارتدّت الى الحياة ، ووثبت عالياً من تحت سطح الماء عارضة كامل طولها وعرضها الباذخين وكامل قوتها وجمالها . وبدت وكأنها معلقة في الهواء فوق الشيخ والقارب . ثم هوت الى اليمّ في طشيش أثار رشاش الماء فوق رأس الشيخ وفوق القارب كله .

وألح الدوار والكلال على الشيخ ، فلم يعد قادراً على ان يرى جيداً . ولكنه حل خيط الحربون وتركه ينزلق في بطء بين يديه المسلوختي الجلد . حتى اذا عاودته القدرة على الإبصار رأى السيف مستلقياً على ظهره ، وبطنُه الفضي ناهدٌ

الى اعلى . وكان نصل الحربون ناتئاً على نحوٍ منحرف ، من كتف السمكة ، وكانت مياه البحر تصطبغ بلون الدم السائل من فؤادها . وكان ذلك اللون داكناً بادىء الأمر مثل شاطىء ضحل ، في ذلك البحر الأزرق الذي يزيد عمقه على ميل . ثم انتشر انتشار السحاب . وكانت السمكة لجينيةً ساكنةً ، وكانت تطفو مع الأمواج .

وفي تلك الفترات القصيرة التي تمكّن خلالها من الابصار حدّق الشيخ في اهتمام ، ثم لفّ حبل الحربون مرتين اثنتين حول الوتد القائم عند مقدّم الزورق ووضع رأسه بين يديه .

وقال مستنداً الى خشب القيدوم : حافظ على صفاء رأسك . انا رجل عجوز متعَب . ولكني قتلت هذا السيف الذي هو اخي ، ويتعيّن عليّ ان اقوم الان بمختلف ضروب العمل الشاق .

وفكّر : يجب أن أعدّ الحبل والعُرى لكي أجرّ السمكة الى جانب القارب . وحتى لو كنا اثنين ، وحنَيْنا القارب لنُقلّها عليه ثم افرغناه من الماء لما كان في ميسور القارب ان يحملها . يجب ان اعِدّ الآن كل شيء . ثم أقتادُها وأشدها بالحبال شداً محكماً . حتى اذا تمّ لي ذلك أقمتُ السارية ، ونشرت الشراع ، ورجعت الى بيتي .

وشرع بجذب السمكة لكي تصبح في محاذاة القارب ، ولكي يكون في ميسوره ان يُدخل الحبل من خلال خياشيمها ويخرجه من فمها ثم يشدّ رأسها الى القيدوم . وقال في ذات نفسه : اريد أن اراها . أن المسها . أن اجسّها . إنها

ثروتي . ولكنْ ما لهذا أريد أن أجسّها . وتابع حديثه الباطني : أحسب أني مسستُ قلبها حين أغمدت نصل الحربون في المرة الثانية . إسحبها إلى هنـا الآن ، وأحكِمْ وثاقها ، وأمرّ انشوطة حول ذنبها ، وأنشوطة حول وسطها لشدّها إلى القارب .

وقال :

– « هيا إلى العمل ، أيها الرجل العجوز ! » وتناول جرعة من الماء ، ثم أردف : « أمامك أعمال شاقـة كثيرة يجب أن تقوم بها بعد ان انتهى القتال إلى غايته . »

ورفع بصره إلى السماء ، ثم خفضه نحو سمكته . لقد تأمّل موقع الشمس في اهتمام . وفكّر وقال في ذات نفسه : نحن لم نَعْدُ الظهيرة كثيراً . وها هي ذي الريح التجارية تهبّ . والحبال ، إنها لم تَعُدْ ذات غناء ، منذ اليوم . ولكني سوف أصل ما بينها ، أنا والغلام ، حين أنتهي إلى البيت .

وقال :

– « هيّا ، تقدمي أيتها السمكة ! »

ولكن السمكة لم تتقدم . لقد أقامت هناك متمرغة في الماء ، فاضطر الشيخ إلى أن يسحب القارب إلى ناحيتها .

حتى إذا انتهى اليها وارتطم رأسها بمقدّم القارب لم يصدّق الشيخ عينيه . كانت ضخمة إلى حد بالغ . وفي الحال نزع حبل الحربون من وتد المقدّم وأمرّه في خيشوم السمكة مخرجاً إياه من فكّيها ، وأداره حول رمحها ليُمِرّه بعد في خيشومها الآخر . حتى إذا تمّ له ذلك لف الحبل كرّةً ثانية حول

رمح السمكة وعقّدَ طرفيه ، وشدّ السمكة كلها إلى الوتد القائم في مقدّم القارب . ثم انه قطع ما تبقّى من الحبل وارتدّ إلى مؤخر الزورق لكي يشدّ الذنب بالطريقة نفسها .

وكان لون السمكة الارجواني الفضي قد حال الآن فضياً خالصاً ، وتكشّفت العصائب عن مثل لون الذنب البنفسجي الشاحب . وكانت تلك العصائب أعرض من يد المرء وقد نشر أصابعه . أما عين السمكة فبدت نافرة متوحدة مثل مرايا البريسكوب ، أو مثل قديس في موكب .

وقال الشيخ :

– « لم يكن ثمة وسيلة أخرى لقتلها . »

كان شيء من النشاط قد عاوده بعد جرعة الماء التي تناولها . وصفا رأسه ، وأدرك انه لن يغمى عليه بعد الآن . وفكّر : إن وزنه في ما يبدو يزيد على الف وخمسمئة رطل . ولعله ان يبلغ أكثر من ذلك بكثير . ولنفرض انه قد بقي منه ، بعد انتزاع الزوائد ، ثلثا هذا الرقم ، وان ثمن كل رطل ثلاثون سنتاً فكم تبلغ قيمة هذه السمكة ؟

وقال :

– « أحتاج إلى قلم لكي أجري حساب ذلك . ولعلّ رأسي غير صاف إلى هذا الحد . ولكني أظن ان دي ماغيو العظيم سوف يكون فخوراً بي اليوم . أنا لم أشاكُ أيّ نتوء في عظم العقب ، ولكن يديّ ملتهبتان وظهري كذلك . »

وفكّر : تُرى أيّ شيء هذا الذي يدعونه نتوءاً في عظم العقب ؟ لعلنا نصاب به من غير أن نشعر .

وشدّ السمكة إلى مقدّم القارب ومؤخره وإلى مقعد التجذيف

الاوسط . كانت بالغة الضخامة حتى لقد خُيل اليه وكأنه يشد إلى قاربه قارباً أكبر منه بكثير . وقطع جزءاً من الحبل وربط فكّ السمكة الادنى إلى أنفها لكي لا ينفتح فمها فيعوق حركة القارب . ثم إنه أقام السارية . وبالعصا التي كانت له بمثابة المحجن ، نشر الشراع . واتخذ الزورق سبيله في البحر ، واضطجع الشيخ نصف اضطجاع في مؤخر القارب ، وأدار السكان نحو الجنوب الغربي .

ولم يكن في حاجة إلى بوصلة لكي تنبئه أين يقع الجنوب الغربي . كان حَسْبُهُ أن يستشعر الريح التجارية ويراقب تموجات الشراع . وقال في ذات نفسه : من الأفضل أن أدلي بخيط صغير شُدّ اليه شصّ على شكل ملعقة لكي أصطاد شيئاً آكله وأبلّ عروقي بنداوته . ولكنه لم يهتدِ إلى الشصّ الملعقيّ ، وكانت ذخيرته من السردين قد فسدت . وهكذا التقط بالمحجن حزمة من عشب « الخليج » الاصفر ثم هزها لكي يُسقط أسماك الروبيان الصغيرة العالقة بها فوق ألواح الزورق . وهكذا تساقط ما يزيد على دزينة منها ، وراحت تثب وترفس مثل براغيث البحر . وفصل الشيخ ، بسبابته وإبهامه، رؤوس السُميكات عن أجسادها ، ثم أكلها كلها حتى أصدافِها وأذنابِها . كانت ضئيلة جداً ، ولكن ريحها طيب ، وقوتها الغذائية كبيرة .

وكان قد بقي للشيخ في زجاجة الماء ملء كأسين ليس غير . حتى إذا التهم سميكات الروبيان جرع مقدار نصف كأس . وأبحر الزورق على نحو مرضٍ – إذا اعتبر المرء مختلف العوائق والعقبات – وقاده الشيخ ومقبض السكان تحت

ذراعه . كان في ميسوره أن يرى إلى السمكة ، وكان بحسبه أن ينظر إلى يديه ويتحسّس ظهره بمؤخر الزورق لكي يدرك ان ذلك قد وقع فعلاً ، ولم يكن حلماً من الاحـلام . ففي فترة ما ، حين اشرفت المعركة على الانتهاء ، وبلغ الأعياء منه كل مبلغ ، خُيّل للشيخ ان الامر قد لا يعدو ان يكون مناماً. حتى إذا انطلق السيف من أعماق الماء ، وتدلى في السماء ، من غير حراك ، قبل ان يسقط في اللجة ، ثبت للشيخ ان ثمة شيئاً عجيباً جداً لا يستطيع هو أن يؤمن به . إنه ما كان قادراً على أن يبصر جيداً ، آنذاك . أما الآن فهو يرى كأحسن ما اعتاد أن يرى .

لا ، إنه لم يرَ ذلك كله في ما يراه النائم ، وها هي ذي السمكة الكبيرة تحت ناظريه ، وها هما يداه وظهره بجراحاتها والتهاباتها . وقال في ذات نفسه : سوف تشفى اليدان سريعاً . لقد أثخنتهما بالجراح ، ولكن الماء المالح سوف يلأم تلك الجراح . إن مياه « الخليج » الحقيقي السوداء هي أعظم دواء في الوجود . وكل ما يتعيّن عليّ الآن هو أن أحتفظ بصفاء الرأس . لقد قامت اليدان بمهمتهما ، وها نحن نبحر في سهولة ويسر . أجل نحن نبحر ، أنا والسّيف ، مثل أخوين ، بعد أن أغلق فمه واستقام ذيله . ثم غامَ رأسه بعض الشيء ، وشرع يفكّر : أهو الذي يقودني ، أم أنا الذي أقوده ؟ لو كنتَ أقطره خلفي لما كان ثمة شك في المسألة . ولو قد كان هذا السيف منطرحاً في الزورق ، بعد ان زايله جلاله كله ، لما كان ثمة شك أيضاً . ولكنها كانا يُبحران ، وقد شُدّ أحدهما إلى الآخر جنباً إلى جنب .

وقال الشيخ في ذات نفسه : فليقدني هو إذا كان ذلك يروق له . أنا لم أفز عليه إلاّ بالحيل والاساليب غير الشريفة . وهو لم يكن ليقصد إلى ايذائي ، على الاطلاق .

واتخذا سبيلهما الهادىء في البحر . ونقعَ الشيخ يديه في الماء الأجاج ، وحاول أن يحتفظ بصفاء رأسه . وكان يظللهما ركام من الغيوم السامقة ومقدار غير يسير من سُحب الطحارير جعل الشيخ يدرك ان الريح سوف تهبّ طوال الليل . ونظر الشيخ إلى السمكة الكبيرة نظراً موصولاً لكي يوقن أنها حقيقة راهنة ! وكان ذلك قبل أن يهاجمه أول الاقراش .

ولم يكن ذلك القرش هناك ، مصادفة أو اتفاقاً ، ذلك بأنه غادر أعماق الاوقيانوس حين تشكلت سحابة الدم الداكنة ثم تبدّدت خلَل المياه البالغ عمقها ميلاً . وكان قد انطلق في سرعة بالغة ومن غير ما احتراس البتة ، حتى لقد كسر صفحة الماء الازرق . وأعشته أشعة الشمس ، فارتدّ غائصاً في البحر . ثم انه اهتدى من طريق الشمّ إلى الاثر الدامي ، وأنشأ يسبح متعقباً الزورق والسمكة .

وكان يضلّ الاثر ، في بعض الاحيان ، ولكنه ما يلبث أن يهتدي اليه ، أو تدلّه أمارة ما عليه ، فينطلق سابحاً خلف الزورق . كان قرشاً ضخماً جداً من الضرب المعروف باسم « ماكو » ، وقد أعِدّ ليسبح بأسرع مما تسبح أي سمكة من سمكات البحر . كان كل ما فيه جميلاً ، ما عدا

فكّيه . وكان ظهره أزرق كالسمكة السيف ، وكان بطنه لجينياً ، وجلده جميلاً أملس . وكان أشبه ما يكون بأحد أسياف البحر ، لولا فكّاه الضخمان اللذان كانا مطبقين ، الآن ، إطباقاً محكماً فيما هو يندفع سابحاً في سرعة ، تحت سطح البحر مباشرة ، وقد شقّت الماء زعنفتُه الظهرية العالية ، كشفرة فولاذية ، من غير ان تتذبذب . وفي فمه المطبق ، كانت ثمانية صفوف من الانياب المنحرفة ، المرتدّة رؤوسها نحو الداخل ، ولم تكن مثل الاسنان الهرمية العادية التي لمعظم الاقراش ، ولكنها كانت أشبه شيء بأصابع إنسان مُنْشَبَة كالبراثن ، وكان طولها يبلغ طول أصابع الشيخ تقريباً ، وكان لكل منها – على الجانبين – حافتان قاطعتان كالموسى . وكانت أسماك البحر ذات السرعة والقوة البالغتين ، والاسلحة الواقية ، تعتبر ان ليس لها عدوّ غير هذه السمكة . إنها قادرة على أن تلتهمها جميعاً .

وتعاظمت سرعة القرش حين استروح عبق الدم الاكثر غضاضة . وأنشأت زعنفته الظهرية تشق عباب الماء .

وحين بَصُرَ الشيخ بتلك السمكة تتقدّم نحوه أدرك أن ذلك قرش لا يعرف الخوف سبيلاً إلى قلبه ، وانه خليق به ان يفعل كل ما يحلو له على وجه الضبط . وأعدّ الشيخ الحربون وأوثق الحبل ، فيما هو يراقب القرش يتقدم . وكان الحبل قصيراً بعد ان أعوزه ما اقتطعه منه قبل ذلك لكي يشد وثاق السيف .

واستشعر الشيخ النشاطَ والصحوَ . وكان ينضح قوة وعزماً ، ولكنه كان قليل الامل في النجاح . وفكّر قائلاً : هذا الوضع

جيد إلى درجة تجعل استمراره أمراً متعذراً . وألقى نظرةً على السمكة الكبيرة فيما راح يراقب تقدم القرش نحو الزورق . وقال بينه وبين نفسه : كان من الممكن ان يكون هذا حلماً أيضاً . أنا لا أستطيع ان أحول بينه وبين الهجوم عليّ ، ولكن لعلي أوفق إلى ان اصرعه . وفي ذات نفسه قال : أيها القرش ، لأمّك الحَبَل !

وانتهى القرش إلى مؤخر الزورق . حتى إذا هاجم السيف رأى الشيخ فمه المفتوح ، وعينيه الغريبتين . وسمع أسنانه تصطك مطبقة على اللحم الذي يجاوز الذيل مباشرة . وأخرج القرش رأسه من الماء ، وارتفع ظهره الى سطح البحر . وكان جلد السيف ولحمه قد شرعا يتمزقان في اللحظة التي طعن فيها الشيخ رأس القرش بحربونه ، عند تلك النقطة التي تعارض فيها الخط الممتد ما بين العينين بالخط المرتدّ من الأنف مباشرة . ولم تكن هذه ، في الواقع ، غير خطوط وهمية . إذ لم يكن ثمة غير الرأس الأزرق الثقيل المستدقّ ، والعينين الكبيرتين ، والفكّين الواخزين المفترسين كل شيء . ولكن كان ذلك مستقر الدماغ، فطعنه الشيخ هناك . طعنه بيديه الداميتين الزلقتين مغمداً حربونه المطواع بأقصى ما يستطيع من قوة . طعنه من غير أمل ، ولكن في عزم ، وفي حقد غامر .

وانقلب القرش على جنبه ، فرأى الشيخ ان عينه كانت خلواً من الحياة . وانقلب على جنبه كرة أخرى لافاً نفسه بالحبل مرتين . وأدرك الشيخ ان القرش قضى نحبه ، ولكنه يأبى التسليم بذلك . لقد استلقى على ظهره ، صافعاً بذنبه الهواء ، مطبقاً أنيابه على الفراغ ، وأنشأ يثير الماء مثل زورق

من زوارق السباق . وازبدت المياه حيث أصابها ذيله . وكان ثلاثة ارباع جسده فوق سطح الماء عندما توتر الحبل ، وارتعش، ثم انقصف . وانطرح القرش ساكناً فوق سطح الماء ، فترة قصيرة ، ثم غاص إلى الاعماق في اناة بالغة .

وقال الشيخ في صوت عال :

– « لقد التهم نحواً من اربعين رطلاً . »

ثم فكّر : ليس هذا فقط ، بل لقد أخذ حربوني أيضاً ، والحبل بكامله . وها هي سمكتي يسيل منها الدم كرة أخرى . ولا بدّ أن تُقبل الآن أقراش أخرى .

ولم يؤانس في نفسه ميلاً إلى النظر إلى السمكة بعد أن بُترت وشوّهت . فحين نهش القرش لحم السمكة أحس الشيخ وكأنّ لحمه هو ، هو الذي نُهش .

وبينه وبين نفسه قال : ولكني قتلتُ القرش الذي نهش لحم سمكتي . وكان اكبرَ الاقراش التي رأيتها في حياتي . والله وحده يعلم كم قرشٍ أضخم أبصرت عيناي .

وفكّر : كانت الحال أجود من أن تستمرّ . ليتَ ذلك كله كان حُلماً ، وليتني لم اصطد هذا السيف . بل ليتني كنت في سريري فوق الصحف العتيقة .

وقال :

– « ولكن الانسان لم يُخلق للهزيمة . الانسان قد يُدمَّر ولكنه لا يُهزم . »

وفكّر : ومع ذلك فأنا آسف لقتلي هذه السمكة . وها قد أوشكت الاحوال الجوية ان تسوء ، وليس عندي حربون .

إن القرش وحشيّ وبارع ، قـوي وذكي ، ولكني كنت أذكى منـه . ولكن من يدري ؟ لعلي كنت أقوى سلاحـاً ليس غير .

وقال في صوت عال :

– « لا تفكر ، أيها الرجل العجوز . أبحر في هذا الاتجاه ، وواجهِ الاشياء عند حلولها . »

وبينه وبين نفسه قال : ولكن يتعيّن عليّ أن أفكـر . لأن التفكير هو كل ما تبقّى لي . اعني التفكير والبيسبول . ترى ، ما رأي دي ماغيو الكبير في الطريقة التي طعنته بها في الدماغ ؟ وفكّر : ولكنهـا لم تكن شيئاً عظيماً . وكان في ميسور أيّ رجل أن يفعل مثل ذلك . ولكن هل تظن أن يديّ المسلّختين كانتا عائقـاً كبيراً كنتوء عظم العقب ؟ لست أدري . أنا لم اشكُ ألماً في عقبي ، طوال حياتي ، إلا حين وطئت ، وأنـا أسبح ، احدى السمكات المفلطحة فلسعت عقبي بحُمتهـا . وحتى هذه اللسعة شلّت رجلي كلهـا ، وأورثتني ألماً لا سبيل إلى احتماله .

وقال :

– « فكّر في شيء يوقع البهجة في فؤادك ، أيهـا الرجل العجوز . ان كل دقيقة تقربك خطوات من البيت وانت تبحر الآن في سرعـة أعظم بعد أن خسرت أربعين رطلاً من لحم السمكة . »

وكان يعرف جيداً ما الذي سيقع حين ينتهي إلى قلب التيار . ولكن لم يكن ثمة ما يُعمل ، الآن .

وقال في صوت عال :

— « بلى ، هناك ما يمكن أن يعمل . في استطاعتي أن اشد مديتي إلى عقب أحد المجذافين . »

وكذلك فعل ، ومقبض السّكان تحت ذراعه ، والحبل المعدّل لاتجاه الشراع تحت قدمه .

وقال :

— « والآن ، أنا لا ازال شيخاً كبيراً ، ولكني لست أعزل من السلاح . »

كان النسيم عليلاً . وكان الزورق يبحر في سلامـة . ولم يكن في مستطاع الشيخ أن يرى غير الجزء الاعلى من سمكته . وعاوده الامل بعض الشيء .

وخاطب نفسه قائلاً : من الحماقة ان يفقد المرء الامل . وإلى هذا ، فأنا أعتبر ذلك إثماً . ولكن دع عنك التفكير في الاثم . إن عندك من الهموم ما لا يبقي مجالاً للتفكير في الإثم . أضف إلى ذلك اني لا أفهمه على الاطلاق .

أنا لا أفهم الاثم ، ولست واثقاً من انني اؤمن به . ولعله كان اثماً ان أقتل السمكة . بل اني لأظنه كذلك ، برغم اني أقدمت عليه لكي أسد رمقي وأطعِم كثيراً من الناس . ولكن كل شيء يصبح عندئذ اثماً . لا تفكر في الاثم ، أيها الرجل العجوز . لقد فاتك القطار الآن ، وهنـاك اناس تُدفع اليهم الاجـور لكي يقترفوه . دعهم يفكرون في ذلك . أمـا أنـت فقـد وُلدت صياداً كما وُلدت السمكة لكي تكون سمكة . القديس بطرس كان صيـاد سمك ، ووالد دي مـاغيو العظيم كذلك .

ولكنه كان مولعاً بالتفكير في جميع الاشياء التي تعنيـه .

وإذ لم يكن عنده شيء يقرأه أو راديو يستمع اليه فقد استغرق في التفكير ، وأصرّ على النظر في موضوع الخطيئة . انت لم تقتل السمكة لأنك تتضوّر جوعاً ، ولا لمجرد رغبتك في بيعها – كذلك قال في ذات نفسه . لقد قتلتَها بسائق الزهو والخيلاء، ولأنك صياد سمك . لقد أحببتَها حين كانت على قيد الحياة . ولقد أحببتَها بعد ذلك أيضاً . وإذا كنت تحبها فليس من الإثم ان تقتلها . أم أن ذلك أدهى وأمرّ ؟

وقال في صوت مرتفع :

– « أنت تفكر كثيراً ، أيها الرجل العجوز . »

وحدّثته نفسه : ولكنك وجدتَ متعة في قتل القرش . إنه يعيش على السمك الحي ، مثلك . إنه لا يحيا على الجيف ، وليس مجرد معدة متحركة مثل بعض الاقراش . انه جميل ، ونبيل ، وليس يعرف الخوفَ من اي شيء .

وصاح الشيخ :

– « لقد قتلتُه دفاعاً عن النفس . ولقد قتلتُه في ضراوة . »

وبينه وبين نفسه قال : وإلى هذا فكل شيء يقتل كل شيء آخر بطريقة ما . إن صيد السمك يفتك بي كما يبقيني على قيد الحياة ، سواء بسواء . والغلام يمدني بالحياة . ينبغي ان لا أخدع نفسي أكثر مما ينبغي .

وانحنى فوق جانب الزورق ، وانتزع قطعة من لحم السيف الذي نهشه القرش . ومضغها معجباً بجودتها وحسن مذاقها . كانت خلواً من الالياف ، ولقد أدرك الشيخ انها خليقة بأن تفوز

في السوق بالسعر الاعلى . ولكن لم تكن ثمة وسيلة للحيلولة بين عبيرها والنفاذ إلى أعماق البحر ، وكان الشيخ يعلم ان ذلك سوف يجرّ عليه متاعب مزعجة جداً .

وكانت الريح تهب على نحـــو موصول . لقد ارتدّت بعض الشيء ، كما فعلت من قبل ، إلى الشمال الشرقي ، فعرف الشيخ من ذلك انها لن تهدأ . وتطلع الرجل العجوز أمامه ، ولكنه لم يستطع أن يرى شراعاً ما ، أو دخاناً ما ينبعث من أي مركب. لم يكن ثمة غير السمكات الطائرة التي انطلقت من مقدّم زورقه واتخذت سبيلها ذات اليمين وذات الشمال ، وغـــير اعشاب « الخليج » الصفراء . إنه ما كان قادراً على أن يرى عصفوراً واحداً .

وكان قد أبحر على هذا النحو ساعتين اثنتين ، مستنداً إلى مؤخر الزورق ، ماضغاً بين الفينة والفينة قطعة من لحم السيف، محاولاً أن يستريح ويستعيد قواه ، عندما بَصُرَ بأول القرشين. وصاح :

— « آي ! »

ولا سبيل إلى ترجمة هذه الكلمة . ولعلها مجرد صوت كذلك الذي يُرسله المرء ، على نحو غير اراديّ ، حين يحس بالمسمار يخترق يده ويغيب في الخشب .

وصاح :

— « غالانوس » Galanos .

لقد رأى الزعنفة الثانية تتقدم خلف الاولى ، فأدرك انـــه

امام قرشين من ذوات الانف الشبيه بالمسحاة . وإنما عرف ذلك من الزعنفة السمراء المستطيلة ، ومن حركات الذنب الشبيهة بضربات المكنسة . لقد استروحا دم السيف ، فهاجهما ذلك ، ولكن جوعهما العظيم الاحمق كان يُضلّهما الاثر ثم يردّهما اليه من غير انقطاع . ومع ذلك فقد كانا يقتربان من الزورق على نحو موصول .

وأوثق الشيخ الحبل المعدّل لاتجاه الشراع . وثبّت مقبض السّكان ، وأمسك بالمجذاف الذي شدّ اليه المدية . ورفعه بأقصى ما يستطيع من الرفق ، لأن يديه كانتا تتميزان ألماً . ثم إنه فتحهما وأطبقهما على المجذاف ، غير مرة ، وفي أناة ، تليينا لهما . وأخيراً أطبقهما في إحكام بالغ لكي يخنق الألم اللاذع ، وأنشأ يراقب القرشين المندفعين نحو الزورق . لقد رأى رأسيهما العريضين المسطحين الشبيهين بالمسحاة ، وزعانفهما الصدرية العريضة البيضاء الرؤوس . كانا قرشين قذرين ، كريهي الرائحة يعيشان على الجيف أكثر مما يعيشان على الصيد والقنص . وكانا إذا ما استبدّ بهما الجوع خليقين بأن يهجما على مجذاف الزورق أو دفته فيعضّاهما ، وبأن يقطعا ارجل السلاحف وأيديها حين تكون السلاحف نائمة فوق سطح الماء . ليس هذا فحسب ، بل لقد كانا خليقين بأن ينقضّا على الانسان فيطرحاه في الاعماق ، حتى ولو لم تفح منه رائحة السمك أو رائحة الدم .

وقال الشيخ :

— « آي ، غالانوس ! هيّا ، غالانوس ! »

وأقبلا ، ولكنهما لم يقبلا كما أقبل القرش الاول — الـ «ماكو» .

فقد استدار أحدهما وغاب عن العيان تحت القارب . وكــان في ميسور الشيخ ان يحسّ بالقارب يهتزّ فيما هو ينهش السمكة . وراقب الآخر ، بعينيه الضيقتين الصفراوين ، الرجل العجوز ، ثم انقضّ فجأةً ، فاغر الفكّين ، على السمكة ، فنهشها حيث نُهِشت من قبل . وبدا الخط الخياليّ واضحاً مــن قمة رأسه الأسمر إلى حيث يتصل الدماغ بالحبل الشوكي . وفي تلك النقطة بالذات طعن الشيخ القرش بالمدية المشدودة إلى المجذاف . ثم انه سحبها وأهوى بها من جديد على عينَي القرش الصفراوين الشبيهتين بأعين الهررة . فما كان من القرش إلا ان خلّى السمكة ، وغار في الماء ، مزدرداً ما نهشه منها ، ومات .

وكان القارب ما يزال يرتعد بسبب من هجمات القرش الآخر عــلى السمكة . وخلى الشيخُ الحبلَ المعدَّل لاتجاه الشراع لكي يدور الزورق بالعرض ، ويخرج القرش من تحته . ولم يكد الشيخ يرى إلى القرش حــتى انحنى فوق جانب الزورق وطعنه بمديته . ولكنه لم يُصب منه غير لحمه ، بسبب من قساوة الجلد على نحو جعــل المدية لا تنفذ إلى جسد القرش إلاّ بشق النفس . ولم تؤلم الطعنــة يدي الشيخ وحسب ، بل آلمت كتفه أيضاً . ولكن القرش ارتفع في سرعة مطلعــاً رأسه مـن الماء . ولم يكد أنف القرش يخرج من المــاء ويستقر عـلى السمكة حتى طعنــه الشيخ في أمّ رأسه المسطح . ثم ان الشيخ انتزع المدية وأغمدهــا في رأس القرش حيث طعنه أول مـرة ولكن القرش تشبّث بالسمكة ، مطبقــاً فكيه على لحمها . فطعنه الشيخ في عينه اليسرى . ومع ذلك فقــد أبى القرش ان يتزحزح .

وقال الرجل العجوز :

— « ألا يكفيك هذا ؟ »

وأغمد المدية بين الفقار والدماغ ، فشقّت طريقها في سهولة ويسر . وأحسّ بالغضروف ينفطر . وقلبَ المجذاف وغيّب النصل بين فكّي القرش لكي يفتحهما . ثم أدار النصل حول نفسه عدة مرات . حتى إذا خلى القرش السمكة وغار في الماء قال الشيخ :

— « أغربْ من هنا . غصْ إلى عمق ميل كامل . إذهب والقَ صديقك ، ومن يدري ؟ فلعلها أمك . »

ومسح الشيخ شفرة مديته ، ووضع المجذاف جانباً . ثم انه أمسك بالخيط المعدِّل لاتجاه الشراع ، فانتفخ الشراع ، واستقام الزورق في طريقه السويّ .

وقال في صوت عال :

— « لقد أكلت الاقراش نصف السمكة على الأقل ، — الربع الذي يضمّ أحسن لحمها . ليت ذلك كان حلماً ، وليتني لم أوقع هذا السيف في شركي ! ان هذا يحزنني أيتها السمكة . إنه يفسد كل ما عملتُهُ . »

وصمت ، ولم يعد راغباً في النظر إلى السمكة . كانت دماؤها قد استُنزِفت ، وكان الماء يغسلها من أقطارها فهي تبدو في مثل لون الفضة التي تُطلى بها ظهور المرايا . وكانت العصائب التي تطوّقها ما تزال بادية للعيان .

ثم قال :

— « ما كان ينبغي لي ان أذهب إلى هذا الحد ، أيتها السمكة . ان ذلك لم يكن لا في مصلحتي ولا في مصلحتكِ .

أنا آسف ، أيتها السمكة ! »

وخاطب نفسه قائلاً : والآن ، ألق نظرة على وثاق المدية لتستيقن انه لم ينقطع . ثم أولِ يديك بعض الاهتمام لأن ثمة أقراشاً أخرى تُقبل من غير ريب .

وقال بعد أن فحص الوثاق الذي يشدّ المديــة إلى عقب المجذاف :

— « لشدّ ما أتمنى لو كان عندي حجر أشحذ عليه المدية . كان ينبغي ان آتي بحجر . »

وفكّر : كان يتعين عليك ان تأتي بأشياء كثيرة ، ولكنك لم تأت بها أيهــا الرجل العجوز . وليس هذا هو وقت التفكير في ما يعوزك . فكّر في الذي تستطيع أن تفعله بمـا في حوزتك من أسباب .

وقال في صوت عال :

— « أوه ، كفّ عن إسداء هذه النصائح إليّ . لقد مللت ذلك . »

ووضع مقبض السّكان تحت ذراعه وغمس كلتا يديه في الماء بينما كان القارب يمضي في سبيله .

وقال :

— « الله وحده يعلم كم انتزع القرش الأخير من لحم السمكة ولكنها أمست أخفّ من ذي قبل بكثير . »

ولم يكن راغباً في أن يفكر في التشويه الذي أصــاب الجزء الأدنى من السمكة . فقد عرف ان كل زلزلة أثارهــا القرش كانت تعني قطعــةً من لحم السيف تُنهَش وتزدرد ، وان السيف قد ترك لجميع أقراش البحر أثراً لاحبــاً كالجادة يشقّ

صفحة الماء .

وقال في ذات نفسه : هذه السمكة تستطيع ان تملأ جوف الانسان طوال الشتاء . ولكنْ دع عنك التفكير في ذلك . كلّ ما عليك أن تعمله هو أن تستريح ، وان تحاول إعداد يديك للدفاع عما تبقّى من السمكة . إن رائحة الدم المنبعث من يديّ ليست شيئاً بالقياس إلى هذه الرائحة التي تفوح من الماء . وإلى هذا ، فان الدم ما عاد يسيل منهما كثيراً . وليس ثمة جرحٌ واحد ذو خطر . وجريان الدم قد يقي اليد اليسرى من التشنج .

وفكّر : ما الذي أستطيع أن أفكر فيه الآن ؟ لا شيء . يجب ان لا أفكر في شيء ، وان انتظر الاقراش التالية . لشد ما أتمنى لو كان حلماً حقاً ! ولكن من يدري ؟ فقد كان من الممكن ان يسفر عن نتيجة حسنة .

وكان القرش التالي مفرداً . وكان ذا رأس عريض شبيه بالمسحاة . وانقضّ على فريسته كما ينقض خنزير على مذوده لو كان للخنزير شدق عريض يمكنك أن تضع رأسك فيه . وتركه الشيخ ينهش لحم السمكة ثم غيّب مديته المشدودة إلى المجذاف في دماغه . ولكن القرش ارتدّ الى الوراء وهو يعاني سكرات الموت فانكسر نصل المدية .

وانصرف الشيخ إلى ادارة السكان . إنه لم يلقِ ولو نظرة واحدة على القرش الضخم الذي راح يغوص في الماء ، وقد بدا في حجمه الطبيعي ، بادىء الامر ، ليغدو بعدُ صغيراً فضئيلاً . كان ذلك المشهد يفتن الشيخ دائماً ، ولكنه لم يبال به ، الآن ، البتة .

وقال :

– « لم يبق عندي غير المحجن . ولكنه لن يكون ذا غَناء . وعندي المجذافان ، ومقبض السكّان ، والهراوة القصيرة . »

وخاطب نفسه : الآن غُلبت . أنا أعلى سناً من ان اقرع الاقراش ؛ بالهراوة ، حتى الموت . ولكني سوف أكافح ما دام عندي المجذافان ، والهراوة الصغيرة ، ومقبض السكان .

ووضع يديه في الماء ، كرة أخرى ، لكي ينقعهما . وكان الاصيل يؤذن بالانقضاء . ولم تقع عينا الشيخ على شيء ، غير الماء والسماء . وهبّت الريح ، وصار في ميسوره أن يعلل النفس برؤية اليابسة عما قليل .

وقال :

– « انت متعب أيها الرجل العجوز ! أنت متعَب حتى العظم ! »

ولم تهاجمه الاقراش كرةً أخرى إلا بعد ان جنحت الشمس إلى المغيب .

وبصر الشيخ بزعنفتين سمراوين تتخذان سبيلهما عبر الأثر العريض الذي تركته السمكة في الماء . ومن عجب ان هذين القرشين لم يضربا في البحر التماساً للراحة . بل انطلقا نحو القارب مباشرةً ، سابحين جنباً إلى جنب .

وثبّت الشيخ مقبض السكان . وأوثق حبل الشراع ، وانتزع الهراوة من تحت مؤخر الزورق . وكانت عبارةً عن مقبض مجذاف مكسور نُشر حتى أمسى طوله نحواً من قدمين ونصف . ولم يكن بقادر على أن يصطنعها في فعالية إلا إذا

أمسكها بيد واحدة ، بسبب من شكل مِمْسكها . وفي حزم ، أطبق الشيخ بيده اليمنى عليها ، وانحنى فوقها وأنشأ يراقب اندفاع القرشين . كانا كلاهما من نوع غالانوس .

وخاطب نفسه : يجب ان أدع اولهما يُنشب أنيابه في السمكة ثم أضربه على أنفه أو عبر قمة رأسه .

واندفع القرشان نحو السمكة ، في آن معاً . حتى إذا رأى أقربهما يفتح فكيه ويطبقهما على بطن السمكة الفضي ، رفع الهراوة عالياً ثم أهوى بها ثقيلةً صاخبةً على أمّ رأس القرش العريض . وواجهت الهراوةُ ضرباً من المقاومة المطاطية المرنة ، ولكن الشيخ أحسّ في الوقت نفسه بصلابة العظم . وفيما القرش ينأى عن السمكة ، ضربه الشيخ كرةً أخرى على أنفه .

وكان القرش الآخر قد انقضّ على السمكة وارتدّ عنها مرات عديدة ، وكان قد انقلب اليها الآن واسعَ الشدقين . لقد رأى الشيخ إلى قطع اللحم — لحم السمكة — تسيل بيضاء من زاوية فمه فيما هو ينقضّ على السمكة وينشب أنيابه فيها . ورفع الشيخ الهراوة وأهوى بها عليه ، ولكنه لم يصب غير رأسه . ونظر اليه القرش . وانتزع قطعة اللحم التي كان قد قطعها . وأهوى الشيخ بهراوته عليه فيما كان ينسلّ ليبتلع تلك القطعة ، ولكنه لم يصب هذه المرة أيضاً غير الطبقة المطاطية الكثيفة من الرأس .

وقال الرجل العجوز :

— « تعال أيها القرش ! تعال مرةً أخرى ! »

وأقبل القرش في اندفاعة ، فاستقبله الشيخ بهراوته حين

أطبق فكّيه . لقد رفع الهراوة أعلى ما يستطيع أن يرفعها وأهوى بها قويةً قاضية . وهذه المرة استشعر الشيخ انه أصاب العظم عند مستقرّ الدماغ . ثم سدّد إلى ذلك الموضع عينه ضربةً أخرى ، فيما انتزع القرشُ الخدِر قطعة اللحم ونأى عن السمكة .

وقال الشيخ في ذات نفسه : قد يعود . ولكن أياً من القرشين لم يبرز للعيان . ثم رأى واحداً يحوّم فوق سطح الماء . ولم يرَ زعنفة الآخر .

وفكّر : لم يكن في وسعي أن أتوقّع قتلها . فقد تغير الحال الآن . ولكني اصبتها كليها إصابة خطيرة . ولن يستشعر أيٌ منهما نشاطاً منذ اليوم . ولو قد كان في إمكاني ان أضربهما بكلتا يديّ بأحد النبابيت إذن لقتلت اولهما من غير ريب ، حتى في هذه اللحظة — كذلك قال في ذات نفسه .

ولم يرغب في النظر إلى السمكة . لقد عرف ان الاقراش قد التهمت نصفها . وكانت الشمس قد جنحت إلى الغروب فيما هو منهمك في قتال القرشين .

وقال :

— « سوف يهبط الليل وشيكاً . وعندئذ لا بُدّ ان أرى أضواء هافانا . وإذا كنتُ قد أوغلت في المضي نحو الشرق فسوف أرى أضواء شاطىء من الشواطىء الجديدة . »

وفكّر : ينبغي ان لا اوغل في الابتعاد عن الشاطىء منذ اليوم . وأرجو ان لا يقلقوا عليّ هناك . إن الغلام وحده هو الذي سوف يقلق عليّ ، طبعاً . ولكني واثق

من انه لن يقطع الرجـاء . وكثير من الصيـادين الشيوخ سوف يقلقون . وكثيرٌ غيرهم أيضاً . أنا أحيا في بلدة طيّبة.
ولم يعد في ميسوره ان يخاطب السمكة بعد الآن لأن السمكة كانت قد شُوّهت تشويهـاً فظيعاً . وفجـأةً ، طـافت برأسه فكرة .
وقال :
— « يا بقيةً من سمكة ! يا سمكةً كُنْتِها ! أنا آسف لإيغالي في الابتعاد عن الشاطىء . لقد حطمني ذلك وحطمكِ . ولكننا قتلنا كثيراً من الاقراش . انا وأنتِ ، ودمّرنا كثيراً منها . كم قرشاً قتلتِ في حياتكِ ايتها السمكة العجوز ؟ انتِ لم تحملي ذلك الرمح على رأسكِ لغير ما سبب ! »
وأحبَّ ان يفكر في السمكة وفي ما تستطيع ان تفعله بأحد الاقراش لو كانت تسبح في حرية . وفكّر : كان ينبغي أن اقتطع رمحها ذاك وأحارب الاقراش به . ولكن لم يكن ثمة فأس ، وكنت قد فقدت مديتي .
آه لو استطعت ان أفعل ذلك ! آه لو استطعت ان اثبّته إلى عقب احد المجذافين ! أيّ سلاح هائل كنت خليقاً بأن افوز به ! وإذن لكنا جديرين ، أنا وأنتِ ، بأن نقاتلهم معاً . ما الذي سوف تفعلينه الآن إذا اقبلوا في الليل ؟ ما الذي تستطيعين أن تفعليه ؟
وقال :
— « القتال ! سوف اقاتلهم حتّى الموت ! »
وإذ غمره الظلام ، ولم تقع عينه على ايما وهج ولا أضواء ، وإذ أمسى متوحداً لا رفيق له غير الريح وغير اندفاعة الشراع

المطردة ؛ استشعر وكأنه قد أسلم الروح . وشبك يديه ، وجسّ راحتيها ، فاذا هما غير خدِرتين على الاطلاق . ولم يكن محتاجاً ، لكي يُجري الحياة فيهما ، إلى اكثر من فتحهما وإغلاقهما على نحو موصول . وأسند ظهره إلى مؤخر القارب ، وأدرك انه ليس ميتاً . لقد أنبأته بذلك كتفاه .

وفكّر : هناك جميع تلك الصلوات التي وعدتُ بتلاوتها إذا ما فزت بالسمكة . ولكني من الاعياء بمحلّ لا يمكنني من ان اتلوها الآن . من الأفضل ان آتي بالكيس وأضعه فوق منكبيّ .

واستلقى في مؤخر القارب نصف استلقاءة ، وأمسك بالسكان ، وأنشأ يراقب الافق علّه يقع على طلائع الضوء . وقال في ذات نفسه : لقد بقي من السمكة نصفها ، فعسى ان يكون من حظي ان أبلغ به شاطىء السلامة . انا استحق شيئاً من الحظ . ثم أردف في الحال : لا . لقد انتهكتَ حرمة حظك حين اوغلتَ في الابتعاد عن الشاطىء هذا الإيغال كله .

وقال في صوت عال :

— « لا تكن أحمقَ ! حاذِرْ ان تستسلم للنعاس ، وأدِرِ السكان . فقد يحالفك الحظ بعد قليل . »

وفكّر : أود لو آشتري شيئا من لحمها إذا ما عرضوها للبيع فى مكان ما.

وسأل نفسه : ولكن بمَ اشتري تلك القطعة من لحمها ؟ هل استطيع ان اشتريها بحربون ضائع ، ومدية مكسورة ، ويدَين واهنتين ؟!

وقال في ذات نفسه : ولم لا ؟ لقد حاولتُ ان تشتريها بأربعة وثمانين يوماً قضيتها في عرض البحر . بل لقد كادوا يبيعونها لك ايضاً .

وفكّر : يجب ان لا افكر في هذا الهراء : الحظ شيء يأتي في صور متعددة . ومن ذا الذي يستطيع أن يتبينه ؟ وعلى أية حال ، فاذا ما جاءني الحظ ، في صورة ما ، فسوف أفعل كل ما يُطلب اليّ فعله . انا اتمنى اشياء كثيرة جداً . ولكن هذا هو الشيء الذي أتمناه الآن . وحاول ان يتخذ وضعاً يمكنه من ادارة السكّان على نحو أدعى إلى الراحة . وكان في الألم الذي أورثته إياه هذه الحركة ما اكد له انه ليس بميت .

وحوالى الساعة العاشرة ليلاً ، في اغلب الظن ، بَصُرَ بهالة الانوار المنعكسة من المدينة على صفحة الماء . وكانت أول امرها اشبه شيء بذلك الضوء الباهت الذي ينتشر في السماء قبل بزوغ القمر . ثم انتهت الى ان تصبح ثاقبة تخترق وجه المحيط الذي طفقت امواجه تتلاطم بعد ان اشتدت الريح . وقاد الشيخ زورقه ضمن نطاق الهالة . وقدّر انه سوف يبلغ حاشية التيار في وقت قريب .

وقال في ذات نفسه : انتهى الآن كل شيء . وأغلب الظن ان الاقراش سوف تهاجمني من جديد . ولكن أي شيء يستطيع المرء ان يفعله بها ، في غمرة الظلام ، وهو اعزل من السلاح ؟

كان متصلب الاوصال ، مغيظاً . وكان برد الليل قد أثار كل جراحات جسده المرهق وآلامه . وخاطب نفسه قائلاً :

ارجو ان لا أضطر الى استئناف القتال . ارجو من شغاف قلبي ان لا أضطر الى استئناف القتال !

ولكن ما ان انتصف الليل حتى خاض غمار معركة أخرى . وأدرك الشيخ ان القتال هذه المرة عبث لا طائل تحته . فقد اندفع نحوه من الاقراش قطيعٌ كامل ، ولم يكن في ميسوره ان يرى غير الخطوط التي احدثتها زعانف الاقراش في الماء وغير تألقها الفوسفوري وهي تنقضّ على السمكة . وانهال الشيخ على رؤوس الاقراش ضرباً ، وسمع فكوكها تُطبق مدوّية ، وأحسّ بالقارب يتأرجح فوق ظهورها . وناضل الشيخ ، في يأس ، ضد أعداء لم يكن قادراً على ان يراها ، ولكنه يحسّ بها ويسمعها . وفجأة استشعر شيئاً ينتزع الهراوة ، فضاعت من يديه .

وهنا نتر الشيخ مقبض السكان وراح يضرب به الاقراش ، رافعاً اياه بكلتا يديه ، مُهوياً به مرة بعد مرة . ولكن الاقراش كانت قد انتهت الى القيدوم ، فهي تنقضّ على السمكة وحداناً وزرافات ، وتنهش اجزاء من لحمها كانت تراها تتوهج تحت الماء وهي ترتدّ منقضّة على السمكة من جديد .

وأخيراً انقضّ احد الاقراش على رأس السمكة نفسها . وأدرك الشيخ ان كل شيء قد انتهى . فرفع مقبض السكان وأهوى به على رأس القرش ، وكانت كثافة رأس السمكة قد استعصت على فكي القرش فهو لا يستطيع انتزاع شيء منه . وعاود الشيخ ضرب القرش مرةً ومرةً ومرةً . وانكسر مقبض السكان . فواصل ضرب القرش بعقب المقبض المكسور . وأحسّ بهذا

العقب ينفذ الى رأس القرش ، فأدرك أنه حادّ فعاود ضرب القرش به . وعندئذ نأى القرش وأعرض بجانبه ، وتلوّى في سكرة الموت . وكان ذلك آخر قرش انقضّ على السمكة من اقراش القطيع . اذ لم يبق من تلك السمكة ما تستطيع الاقراش ان تأكله .

كان الشيخ يلهث لهاثاً شديداً ، وكان مذاق غريب يملأ فمه . انه مذاق نحاسيّ وحلو . ولقد خافه الشيخ باذىء الأمر ، ولكنه لم يكن قوياً ذا خطر .

وبصق الشيخ في المحيط وقال :

– « كلوا هذا ، ايهـــا الاقراش ، واحلموا انكم قتلتم رجلاً ! »

لقد أدرك الآن انه هُزم هزيمة نهائية لن تقوم له بعدهـــا قائمـــة . فانقلب الى مؤخر القارب فوجد ان طرف المقبض المثلوم يلج في تجويف السّكان على نحـــو يمكنه من قيادة الزورق . ثم انه طوّق كتفيه بالكيس واتخذ سبيله نحو اليابسة . لقد غدا القارب خفيفـــاً رشيق الحركة ، ولم تراود الشيـــخ أيما فكرة ، او تخالجه ايما شعور . لقد تخطى الآن كل شيء ، فهو لا يفكر الاّ في شيء واحد : ان يبلغ الشاطىء على خير وجه يستطيعه وأذكاه . وفي موهن من الليل كانت الاقراش تنقضّ على هيكل السمكة العظميّ كما يتهافت الفقراء على بقايا المائدة . ولم يبال الشيـــخ بهم . انه لم يبال بشيء غير ادارة السكان . بيد انه لاحظ رشاقة القارب وسرعته بعد ان تخفف من معظم الحمل الذي كان يثقـــل خطاه . وقـــال في ذات نفسه : انه ما زال سليماً . ولم يُصب أيّ شيء فيـــه

بسوء ، باستثناء مقبض السكان . ومن اليسير عليّ ان استبدل به غيره .

وأحسّ انه انتهى ، الآن ، الى مجرى التيار ، وصار في ميسوره ان يرى الى اضواء الشواطىء المتناثرة على طول الساحل . لقد عرف أين هو الآن ، ولم يعد الوصول الى البيت امراً عسيراً .

وخاطب نفسه : الريح صديقتنا على اية حال . ثم اردف : اعني في بعض الاحيان . وكذلك البحر الكبير بما فيه من اصدقاء لنا وأعداء . وفكّر : والسرير ايضاً . السرير صديقي . لا شيء غير السرير . لا ريب في ان الاستلقاء عليه شيء عظيم . وقال في ذات نفسه : لشدّ ما تبدو الاشياء سهلة حين يُهزم المرء . انا ما كنت احسب ، في يوم من الايام ، انها سهلة الى هذا الحد . ولكن ما الذي انتهى بك الى الهزيمة ؟

وأجاب في صوت عالٍ :

— « لا شيء . كلّ ما في الأمر اني امعنت في الابتعاد عن الشاطىء . »

حتى اذا دخل المرفأ الصغير كانت اضواء « السعليحة » مطفأة ، فأدرك ان القوم قد آووا الى مضاجعهم . وكانت الريح قد هبّت رُخاء ، بادىء الأمر ، ثم اخذت في الاشتداد فهي الآن قوية عاصفة . ومع ذلك فقد كان السكون يخيم على المرفأ ، فتقدّم بقاربه حتى مجتمع الالواح الخشبية تحت الصخور . ولم يكن ثمة من يساعده فدفع القارب الى أبعد ما استطاع ان يدفعه . ثم غادره وشدّه الى احدى

الصخور . ونزع السارية ، وطوى الشراع وأوثقه بها . ثم انه تنكّب * السارية ، وشرع يصعّد الى الشاطىء . وفي تلك اللحظة فقط ادرك مبلغ الاعيــاء الذي استبدّ به . ووقف لحظة . والتفت الى الوراء فرأى ذنب السمكة الكبير – على ضوء مصباح الشارع – وقد ارتفع الى ما فوق مقدّم الزورق بكثير . وبَصُرَ بعمودها الفقري وكأنه خيط ابيض عــار ، وبكتلة الرأس الداكنة ، وبالرمح الناتىء ، وبذلك العري المترامي ما بين رأس السمكة وذنبها .

وواصل تصعيده . حتى اذا بلغ القمة سقط وظلّ منطرحــاً على الارض ، برهة من الزمن ، والسارية معترضــة كتفه . وحاول ان ينهض ، ولكنه اخفق ، فلبث هناك والسارية على كتفه ، وانشأ ينظر الى الطريق . وفي الجانب الآخر مرّت هرة تسعى في مناكبها . وراقبها الرجل العجوز ، ثم اجتزأ بمراقبة الطريق .

وأخيراً أنزل السارية عن منكبه ونهض . ثم رفــع السارية وتنكّبها واستأنف السير . ولقد اضطر الى ان يقعد خمس مرات على الارض قبل ان يبلغ كوخه .

حتى اذا انتهى اليه اسند السارية الى الجدار . وفي غمرة الظلام التمس زجاجة مــاء ، وشرب جرعةً . ثم استلقى على السرير رافعاً البطانية حتى كتفيه ، وسوّاها حول قدميه وظهره . ونام على وجهه فوق الصحف القديمة ، ويداه منشورتان الى أعلى وراحتاه تواجهان السقف .

وكان نائماً حين اطلّ الغلام ، صباح اليوم التالي ، من

---

* تنكب الكنانة أو القوس : ألقاها على منكبه .

شق الباب . كانت الريـــح عاصفةً الى حد جعل من المتعذر على المراكب ان تغـــادر الشاطىء . وهكذا استرسل الغلام في نومه ذلك اليوم ، ثم اقبل على كوخ الرجل العجوز ، فِعلْه كلّ صباح . وفي الحال انحنى الغلام فوق الشيـخ لكي يستيقن انه ما يزال يتنفس . ثم انه رأى يدي الرجل العجوز وأنشأ ينشج . وسارع الى مغـــادرة الكوخ ، في هدوء كثير ، ليحمل اليه شيئاً من القهوة . وطوال الطريق كانت الدموع تتحـــدر على خديه .

وكان كثير من الصيادين قد احتشدوا حول القارب وراحوا ينظرون الى ما كان مشدوداً الى جانبه . وكان واحد منهم قد خوّض في المـــاء ، راداً بنطلونه الى أعلى ، وأخذ يقيس طول السمكة بحبل .

ولم يمضِ الغـــلام حتّى ذلك المكان . لقد قصد الى هناك من قبل ، وكان قـــد عهد الى احـــد الصيادين في حراسة القارب .

وصاح احد الصيادين :

— « كيف حاله ؟ »

فأجابه الغلام صائحاً :

— « إنه نائم . » ولم يبالِ الغـــلام ان يلاحظ الصيادون دموعه . « ارجو ان لا يزعجه احد . »

وصاح الصياد الذي كان يقيس طول السمكة :

— « كان طولها ثمانية عشر قدماً من الانف حتّى الذنب . »

فقال الغلام :

— « انا لا استغرب ذلك . »

ومضى الى « السطيحة » وطلب ملء صفيحة من القهوة .

— « لتكن ساخنةً وافرة الحليب والسكر . »

— « هل تريد شيئاً آخر ؟ »

— « لا . سوف ارى بعد ذلك ما الذي يستطيع ان يأكله . »

وقال صاحب « السطيحة » :

— « لقد كانت سمكة عظيمة حقاً ! ان احداً لم يرَ مثلها من قبل . وأنت ايضاً ، اصطدتَ امسِ سمكتين رائعتين . »

فقال الغلام :

— « لست ابالي بذلك ! » وأنشأ ينتحب من جديد .

وسأله صاحب المقهى :

— « الا تريد ان تشرب شيئاً ؟ »

فقال الغلام :

— « لا . قل لهم ان لا يزعجوا سانتياغو . سوف ارجع بعد قليل . »

— « إحمل اليه شديد تأثري لما اصابه . »

فقال الغلام :

— « شكراً »

ومضى الغلام بصفيحة القهوة الساخنة الى كوخ الشيخ ، وقعد الى جانبه حتى أفاق . وبدا الشيخ مرة وكأنه استيقظ ، ولكنه ما لبث ان غرق في نوم عميق . وهنا اجتاز الغلام الطريق لكي يستعير بعض الخشب يسخّن به القهوة .

وأخيراً افاق الرجل العجوز . فقال الغلام :

— « إبقَ حيث انت . إشرب هذا » . وصبّ شيئاً من القهوة في قدح .

وتناول الشيخ القدح وشرب ما فيه .

وقال :

— « لقد هزموني يا مانولين . لقد هزموني حقاً . »

— « ليست هي التي هزمتك ، على كل حال . ليست السمكة . »

— « لا . هذا صحيح . لقد هُزِمتُ في ما بعد . »

— « بيدريكو يحرس القارب والعدّة . ما الذي تريد ان تفعله بالرأس . »

— « دع بيدريكو يقطّعه إرباً إرباً ويستعمله في أشراك الصيد . »

— « والرمح ؟ »

— « إحتفظْ به اذا شئت . »

— « يسعدني ذلك . والآن ، ينبغي ان نتفاهم على سائر الاشياء . »

— « هل بحثوا عني ؟ »

— « طبعاً بواسطة حرس السواحل وبالطائرات . »

فقال الشيخ :

— « المحيط كبير جداً ، والقارب صغير لا يُرى في سهولة . »

ولاحظ المتعة البالغة التي تتم للمرء حين يجد امامه شخصاً يحدّثه ، بدلاً من ان يخاطب نفسه أو يخاطب البحر ليس غير . وأضاف : « لقد افتقدتك في هذه المعركة . ما الذي

اصطدته ؟ »

— « واحدة في اليوم الاول . وواحدة في اليـــوم الثاني . واثنتين في اليوم الثالث . »

— « حسن جداً . »

— « سوف نعاود الصيد معاً ، منذ اليوم . »

— « انا لستُ محظوظاً . أنا لم اعـــد محظوظـــاً عـــلى الاطلاق . »

— « قاتل الله الحظ ! سوف اجلب الحظ معي . »

— « وما الذي ستقوله اسرتك ؟ »

— « انا لا ابالي . لقد اصطدت امس سمكتين ولكنا سوف نصطاد معاً بعد اليوم ، فلا تزال ثمـــة اشياء كثيرة ينبغي ان اتعلمها . »

— « يجب ان نصنع رمحاً ثاقباً ونصطحبه دائماً في الزورق . في استطاعتك ان تصنع النصل من طرف نابض (راسّور) من نوابض « فورد » عتيقـــة . وفي ميسورنا ان نشحذه في غواناباكوا . وينبغي ان يكون حاداً وغير ممزوج بعناصر غريبة لكي لا ينكسر . لقد انكسرت مديتي . »

— « سوف آتي بمدية اخرى ، وأشحذ نابض السيارة . كم يوماً تستمر هذه الرياح العاصفة في ما تظن ؟ »

— « ربما ثلاثة ايام . وربما اكثر . »

فقال الغلام :

— « اذن فسوف اجد مجالاً واسعاً لإعداد كل شيء . بينما تنصرف انت الى العناية بيديك . »

— « أوه ، انا اعرف جيـــداً كيف اعالجها . في الليلة

البارحة نفثتُ شيئاً غريبــاً ، وشعرت بشيء يطــقّ في صدري . »

فقال الغلام :

— « لا تنسَ ان تعتني بهذا ايضاً : إستلق في فراشك . ايها الرجل العجوز ، ولسوف احمل اليك قميصك النظيف ، وشيئاً تأكله . »

وقال الشيخ :

— « إحمل اليّ اياً من الصحف التي صدرت خلال غيبتي في البحر . »

— « يجب ان تستعيد نشاطك في سرعة لأن هناك اشياء كثيرة يجب ان اتعلمها ، وفي استطاعتك ان تعلّمني كل شيء . لقد تعذبتَ كثيراً ، أليس كذلك ؟ »

فقال الشيخ :

— « أجل . كثيراً . »

فقال الغلام :

— « سوف آتيك بالطعام والصحف . إسترح جيداً ايهــا الرجل العجوز . سوف اقصد الى الصيدلية وأشتري لك مرهماً تداوي به يديك . »

— « لا تنسَ ان تخبر بيدريكو ان رأس السمكة له . »

— « لا . لن انسى . »

وحين غادر الغــلام الكوخ وهبط الطريق الرديئة المعبــدة بالصخور المرجانية كانت العبرات تتحدّر على خديه كرةً اخرى .

وذلك الأصيل وفَدت على « السطيحة » طائفة من السياح .

وفيما كانت إحدى السيدات تتأمل الشاطئ الحافل بصفائح الجعة الفارغة والأسماك الميتة ، رأت عموداً فقرياً ضخماً طويلاً أبيض ينتهي بذنب هائل يرتفع ويتمايل مع المدّ ، بينما كانت الريح الشرقية تثير البحر عند مدخل المرفأ .

والتفتت السيدة إلى أحد النُدُل وسألته مشيرةً إلى عمود السمكة الفقري العظيم الذي انتهى إلى أن يصبح الآن مجرد نفاية تنتظر أن يحملها المدّ إلى عرض البحر :

— « ما هذا ؟ »

فقال النادل ، وهو يحاول أن يشرح بلغته الكوبانية ما حدث :

— « تيبورون Tiburon . قرش . »

وحسبتْهُ يعني أن العمود الفقريّ الطويل كان لأحد الأقراش . فقالت :

— « ما كنت أعرف أن للأقراش مثل هذه الأذناب الجميلة الرائعة الشكل ! »

وقال زميلها الذي يرافقها :

— « وأنا كذلك ما كنت أعرف ! »

وهناك ، في الكوخ ، القائم في أعلى الطريق ، كان الشيخ قد استسلم للرقاد ، كرةً أخرى ، مُكبّاً بوجهه على الصحف القديمة — شأنه في المرة الأولى — وقد قعد الغلام قربه وأنشأ يرنو اليه . كان الشيخ يحلم بالأسُود .

الاستثمار التربويّ

أ ـ في التحليل والمناقشة:

١ ـ «يبدو لي أنكَ صرتَ رجُلاً قبل الأوان».

اذكر ثلاثة أمور قد تجعل المرء يوصف بأنّه صار رجلاً قبل الأوان.

هل تحبّ أن توصف بأنّك تبدو أكبر من سنّك؟ لماذا؟

٢ ـ «مع أنّ الشيخ كان على مثل اليقين من أنّ أحدًا مِن أهل البلد لن يسرقه، فقد قال في ذات نفسه إنّ في تركِ مِحجَن وحربون في قعر قارب ما إغراء بالسرقة لا داعيَ له».

هل توافق العجوز على ما قاله في ذات نفسه؟ لماذا؟

٣ ـ «وفكّر: ... وليس هذا هو وقت التفكير في ما يعوزك. فكِّرْ في الذي تستطيع أن تفعله بما في حوزتك من أسباب».

كيف تجد ما فكّر به العجوز؟ لماذا؟

٤ ـ «لاحظَ رشاقة القارب وسرعته بعد أن تخفّفَ من معظم الحمل الذي كان يُثقل خطاه».

إلامَ يؤدّي التخفُّف من أثقال الهموم والمشكلات والأخطاء...؟

اذكر ثلاثة أمور تساعد المرء على هذا التخفّف.

٥ ـ «وخاطب نفسه: الريح صديقتنا على أيّة حال. ثمّ أردف: أعني في بعض الأحيان. وكذلك البحر الكبير بما فيه من أصدقاء لنا وأعداء».

ما البُعد الذي قد تعطيه كلمة «الريح» هُنا؟ والبحر؟

انطلاقاً من هذين البُعدين، هل تشاطر العجوز رأيه الوارد في هذه العبارة؟ لماذا؟

٦ ـ «وخاطب نفسه: . . . ولكن ما الذي انتهى بكَ إلى الهزيمة؟ وأجاب بصوت عالٍ: لا شيء. كلّ ما في الأمر أنّي أمعنت في الابتعاد عن الشاطئ».

ربط العجوز بين الهزيمة والابتعاد عن الشاطئ. اربط الهزيمة في حياة المرء بالابتعاد عن ثلاثة أمور مهمّة ذاكرًا إيّاها وَفق الأولويّة.

٧ ـ «يجب أن تستعيد نشاطك بسرعة، لأنّ هناك أشياء كثيرة يجب أن تعملها».

ربط العجوز هنا بين أمرين، ما هما؟ اكتب جملة مشابهة، مغيِّرًا القسم الأوّل منها، واضعاً كلمات من عندك مرتبطة بكثرة الأمور التي على المرء إنجازها.

٨ ـ «ناضل الشيخ، بيأس، ضدّ أعداء لم يكن قادرًا على أن يراها، لكنّه يحسّ بها ويسمعها».

من هذه الأعداء في القصّة؟ اذكر ثلاثة أعداء معنويّة قد ترغب في النضال لتقاومها مع أنّك لا تراها بل ترى آثارها السلبيّة في حياتك.

٩ ـ «المحيط كبير جدًّا، والقارب صغير لا يُرى في سهولة».

إذا اعتبرنا العالَم (أو المجتمع) محيطًا والإنسان (الفرد) قاربًا، فما الأمور الثلاثة الأهمّ التي تساعد القارب ـ في هذه الحال ـ في مواجهة تيّارات هذا المحيط المختلفة المُغرقة أحياناً وأمواجه المرتفعة الخطِرة أحياناً أُخرى؟

١٠ ـ «كم أنا سعيد لعدم اضطرارنا إلى أن نقتل النجوم».

ضع بدلاً من كلمة «النجوم» كلمة من عندك مناسبة للمعنى تدلّ على أمر معنويّ من أمور الحياة.

١١ ـ «إنّ كلّ يوم من الأيّام يفتح للإنسان صفحة جديدة».

هل ترى أنّ هذا القول صحيح؟ لماذا وكيف؟

١٢ ـ اذكر ثلاثة مواقف أو أقوال في القصّة تدلّ على كلٍّ ممّا يلي:

ـ صبر العجوز أو قدرته على مواجهة الصعاب.

ـ إيثار الغلامِ العجوزَ على نفسه.

ـ معنًى إنسانيًا أو بعدًا عميقًا في القصّة ترك أثرًا عظيمًا في نفسك.

١٣ ـ في الصفحات الخمس الأخيرة من القصّة أكثر من جملة قد تُعدّ أبعادها من الأمور التي قد يستنتجها القارئ أو يتعلّمها من القصّة. اذكر ثلاث جمل منها، وما استنتجته أو تعلّمته من خلالها. اذكر ثلاثة أمور أُخرى وردت في القصّة تظنّ (أو تعتقد) أنّك تستطيع تطبيقها في حياتك اليوميّة من الآن فصاعداً، أو في حياتك المستقبليّة بعد أن تتخرّج في مدرستك وتلج أبواب مدرسة الحياة.

ب ـ في الشرح والتفسير:

١ ـ ما المعنى المراد من العبارات التالية؟

ـ نظروا إليه وقد عصر الحزنُ قلوبَهم.

....

ـ لقد أدرك الآن أنه هُزم هزيمة نهائيّة لن تقوم له بعدها قائمة.

....

ـ كانت الأفراش تنقضّ على هيكل السمكة العظميّ كما يتهافت الفقراء على بقايا المائدة.

....

ـ وكأنّ السمكة استشعرت دبيب الموت في أوصالها.

....

ـ قال الغلام: «أنتَ ساعتي المنبِّهة». فقال الرجل العجوز: «الشيخوخة هي ساعتي المنبِّهة».

....

٢ ـ فسّر معانيَ الألفاظ المكتوبة باللون الأسود في ما يلي:

ـ راقب خيوطه فألفاها تنحدر: ....

ـ إبقَ حيثُ أنت: ....

ـ خلا عينيه: ....

ـ نصطاد عددًا غير يسير: ....

ـ أنشأ عدد من الصيّادين يَسْخر: ....

ـ يتحدّثون في كياسة: ....

ـ حملت السمكة وكانت ما تزال غضّة العود: ....

ـ انساب القارب وئيدًا عبر المياه الداكنة: ....

ـ يخفّف به وطأة الحبل الذي أنقض ظهره: ....

ـ كأنك تجتثّ بالفأس شجرة من الأشجار: ....

ـ نظر بعينين ناضحتين بالثقة: ....

ـ طفق الناس يدخلون الغرفة: ....

ـ لأنّ يديه كانتا تتميّزان ألماً: ....

ـ أدرك أنّ القوم آوَوْا إلى مضاجعهم: ....

- هبّت الريح رُخاءً: ....

- أدرك مبلغ الإعياء الذي استبدّ به: ....

- راقب الأسماك وهي تنبجس من الماء الكرّة تلو الكرّة: ....

- كان يستشعر ازدراء ودّيًا لذلك الضرب من السلاحف: ....

ج - في اللغة والنحو:

١ - هات مرادفًا لكلٍّ ممّا يلي، واضبطه بالشكل:

بزغَ = ... إرْباً إرباً = ... مُشْرَع = ...

نشجَ = ... وحْداناً وزرافات = ... حافِل = ...

الوهن = ... لستُ أبالي = ... متعذِّر = ...

الهراء = ... لا رَيب = ... معتوه = ...

اليمّ = ... لا طائلَ تحتَه = ... باسل = ...

الحسام = ... أوثقه بها = ... ثمّة = ...

٢ - هاتِ أضداد الكلمات التالية، واضبطها بالشكل:

أَخفقَ ≠ .... استأنفَ ≠ .... مذعورةٌ ≠ ....

أَنْذرَ ≠ .... ولَجَ ≠ .... تؤُدَةٌ ≠ ....

أرخى ≠ .... دَرى ≠ .... رِفقٌ ≠ ....

انحنى ≠ .... عسيرٌ ≠ .... غضبٌ ≠ ....

٣ - هاتِ الجمع لكلٍّ ممّا يلي، واضبطه بالشكل:

شعاعٌ: .... إعصارٌ: .... خيشومٌ: ....

نسْمةٌ: .... ساريةٌ: .... فَكٌّ: ....

٤ ـ هاتِ المفرد لكلٍّ ممّا يلي، واضبطه بالشكل:

براغيث: .... لفائف: .... النُّدوب: ....

كُثبان: .... مواشير: .... النُّدل: ....

٥ ـ ضع خطًّا تحت الكلمة المختلفة في ما يلي من كلّ سطر، ثمّ اذكر السبب:

ـ أَقَلَّ ـ يَقِلُّ ـ قليل ـ يُقِلُّ ـ قَلَّ ....

ـ ظَلَّ ـ ظليل ـ ظِلّ ـ مظلّة ـ تَظَلَّلَ ....

ـ نعيم ـ نعمة ـ نَعِمَ ـ تَنَعَّمَ ـ نِعْمَ ....

ـ الدعاء ـ لن أَدَعَ ـ لأَذِعُ ـ الدعوة ـ الدعاة...........................

٦ ـ هات المؤنّث لكلٍّ ممّا يلي، واضبطه بالشكل:

عجوز: .... جَوْعان: .... الأصغر: ....

الأفضل: .... الكبير: .... الآخران: ....

الرجال: .... أحدهما: .... الأبيض: ....

٧ ـ علّل طريقة كتابة الهمزة في ما يلي:

أضواء: ....

دماؤها: ....

الخطيئة: ....

تراءت: ....

جيء: ....

٨ ـ أكمل العبارات التالية بالطريقة التي أُكملت بها العبارة الأولى، واضبط ما كتبته بالشكل:

ـ ذُعرت السمكة، فهي مذعورة

ـ انكسر مقبض السكّان، فهو ....

ـ فتح الشيخ باب البيت، فالباب....................

ـ شُدَّت ساق الصنّارة، فهي ....

ـ انحنى مستند إلى مقدّم الزورق، فهو مُنْحنٍ

ـ تمنّى لو كان يستطيع أن يُطعم السمكة، فهو ....

ـ لستُ أشكو التشنّج، فأنا لست.................. التشنّج

ـ استلقى التُّنّ في مؤخّر المركب، فهو ....

٩ ـ أعرب العبارتين التاليتين إعرابًا تامًّا بعد ضبطهما بالشكل التامّ:

ـ أحزن الغلام أن يَرى الشيخ يَرجع كلّ يوم خالي القارب.

ـ انهال على رؤوس الأقراش ضربًا، وسمع فكوكها تُطبِق مدوّية.

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

الكتاب والمؤلف

«**الشيخ والبحر**» هي القصة الخالدة التي فاز فيها الأديب العالمي، همنغواي، بجائزة نوبل 1954. إنها ملحمة النضال الإنساني ضدّ عوامل الطبيعة، وسيمفونية انتصار القلب الكبير على اليأس والقنوط...

«**الشيخ والبحر**» هي بإجماع النقّاد أروعُ ما خطّه أرنست همنغواي. إنها على حدّ قول ناقد «الصنداي تايمز» أثر كامل من الوجهة الفنّيّة ـ أثر ليس في مَيْسورك أن تحذف منه جملة أو تضيف إليه جملة ويبقى للعمل الفنّيّ جلالُهُ ورَوْعته.

القصة مُفْرَغَةٌ في قالَبٍ أنيق فيه وَمَضات من الفلسفة، وفيه نَفَحات من الشعر، وهو الأسلوب الذي أحلّ همنغواي مقام الصدارة بين أدباء العصر الحديث.

تتضمّن هذه السلسلة:

من مؤلَّفات مصطفى لطفي المنفلوطيّ:

- العَبَرات
- الفضيلة
- الشاعر
- في سبيل التاج

من مؤلَّفات جرجي زيدان:

- الأمين والمأمون 1-2
- المملوك الشارد
- جهاد المحبين

من مؤلَّفات ميخائيل شولوخوف:

- الدون الهادئ

من مؤلَّفات مي زيادة:

- كلمات وإشارات
- ابتسامات ودموع
- المساواة

من مؤلَّفات طه حسين:

- المعذَّبون في الأرض
- الوعد الحق

www.malayin.com


978-9953-63-798-3 01312
9 789953 637983 3